محمد آيت حنا

مكتباتُهم

23.5.2017







محمد آيت حنا

مكتباتُهم



للمؤلف في دار توبقال

الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دولوز غوتاري، 2010

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة

المعرفة الفلسفية

الطبعة الأولى، 2016


نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار

بلفيدر، الدارالبيضاء 20300 – المغرب

الهاتف / الفاكس : 23 23 34 522 (212)

البريد الإلكتروني : contact@toubkal.ma

الموقع : www.toubkal.ma

الإيداع القانوني : 2016MO4009

ردمك : 978-9954-659-24-3

ردمد : 2028-1579

مطبعة النجاح الجديدة (**CTP**) – الدارالبيضاء

إلى جدّتي

فاطمة بنت المسكين

رحمها الله

«بلغني أنه رُئيَ في المنام في مدينةٍ جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتبٌ لا تُحَدُّ وهو مشتغل بمطالعتها. فقيل له : ما هذه الكتب ؟! قال : سألتُ الله أن يُشغلني بما كنتُ أشتغل به في الدنيا، فأعطاني».

-ابن الجوزي متحدِّثاً عن الإمام أبي العلاء الهَمَذَاني الحافظ (ت 569)-

«وقبل أن أتصدّى لفكّ هذا اللّغز، أريد أن استعرض بعض المسلّمات. وأولاها : إنّ المكتبة أبدية !»

-بورخيس-

«آه، الكتب، أعترف أنّها اختراعٌ بشريٌّ رائع !»

-الإله عقرب-

I. مكتب القيّم على المكتبة

الفلاّحون لا يضعون الكتب في المكتبات

سواء اختار الباحثُ طريقَ صعوده غرباً باتّجاه سلالة أمّي أو شرقاً باتّجاه أجدادي لأبي، لن يكون بمقدوره أن يهتديَ بغير حاسة الشّم، ولن يشمّ إلاّ التّراب : الجميع فلاّحون. ولا أحد منهم يذكر بالتّحديد أوّل من قرأ أو كتب من السّلالة. أجدادي لأبي تعيّشوا أساساً على الرّعي في جبال الأطلس، ولم يمهلهم الترحّل الوقت الكافي لتدوين شيء حتّى على التّراب. والدُ أبي (جدّي المباشر) الذي كان أوّل من نال اعتراف الدّولة وتقلّد عملاً بأجرٍ مَخْزَنِيٍّ لم ينل يوماً حظّ تشكيل حروف اسمه بيده. من الجهة الأخرى (غرباً باتّجاه أمّي) كان الأسلاف أقلّ ترحّلاً، قادتهم رحلة واحدة طويلة (رحلة أولاد سيدي بوعبيد الشّرقي) حتّى سهول الغرب وهناك أناخوا مطيّهم ودقّوا الأوتاد والأولاد. العديد منهم تلقى دراسة دينيّة، أكثرهم أئمة وملاّك أراضي، وعرفتُ في طفولتي اثنين منهم كانا موثّقين عدليّين وإمامين مرجعين. ويقال إنّ أحدهما كان يمتلك مكتبةً نفيسة، لكنّها اندثرت بعدما قسّمها الورثة مثلما قسّموا الشوكات والسّكاكين الفضية.

نرجع إلى قضيّتنا الأساسية قضيّة المكتبة : لم يشطّ خيالي يوماً حدّ الاعتقاد في إمكان أن أرث من السّلالة شيئاً عدا الأمراض الوراثية، وهي ليست قضيّتنا وإن كانت أهمّ وأخطر من قضايا الوراثة الأدبية، قلت لم أعتقد يوماً في أنّ بإمكان أحدهم أن يطعمني الأدب في الجينوم. وحدها الكتب كانت لتبرّر وجودهم بالنّسبة لي. أن يخلّفوا لي تركة أدبية. أتحدثّ بالطبع هنا متقمّصاً

صوتي في زمن سابق، زمن هوسي بجمع الكتب، إذ لا ريب في أنّي لو خُيّرت الآن لاخترت أن يتركوا لي المال بدل الكتب، لكنهم خلّفوا لي مكتبة. بيد أنّها كانت مكتبة متاهة، مكتبة كان عليّ أن أجمعها قطعة قطعة وأشكّل بنفسي هيكلها الهلاميّ. كان الجميع يملكون كتباً، ولكن لا أحد منهم امتلك خزانة كتب. عندما كنت أزور أحدهم أبحث عن الكتب التي قد تكون موجودة في بيته، عادة ما تكون الكتب في منطقة ما من البيت حيث تخزّن مع غيرها من المتلاشيات، أو يوجد الكتابُ فوق التلفاز أو على رفّ من الرفوف كأيّ شيء لا مبرّر له. لم يكن أحد يمانع في أن آخذ الكتاب، عموماً كانوا دائماً ينظرون لي كغريب أطوار، وأحيانا بخبث يسألون بعد مدّة عن الكتب التي أخذتها والتي إن أرجعتها لن يقرأها أحد، لكنّهم يفطنون بعد أن أسطو على الكتاب أنّ ذلك الكتاب كانت له وظيفة ما هناك حيث كان، وأنّ شيئاً مّا يهدّد قوام البيت بعدما اختفى الرّفيق الصّامت. هو ذا التّوصيف الأنسب الذي أبدعتُه لعلاقة السّلالة بالكتب : «الرّفيق الصّامت»، خير جليس في الأنام بالنّسبة لأبناء سلالتي جليس صموت، يؤنس دون أن يزعج.

الكتب التي كنت آخذها مدينة لي بأنّي منحتها صوتاً، كتب ما كانت لتنطق يوماً لو أنّها ظلت في مكانها، وما زلت إلى اليوم أتعجّب من العناوين التي كنت أصطادها في سياحاتي ما بين منازل العائلة، ما الذي كان يفعله تاريخ الأدب لحنّا الفاخوري في ذلك المكان المظلم بين الرّطوبة وخيط العنكبوت ؟ أكان ذلك الكتاب الرّائع لينطق يوماً لولا أن امتدت له يد السّارق جامع الكتب؟ وفي بيت الخالة حيث لا صوت يُسمع سوى صوت الدراسات القانونية والفقهية كيف وصل ديوان «الكائن السّبإي» لمحمد السّرغيني ؟ من في ذلك البيت يقرأ السّرغيني الذي لا يقرؤه حتّى بعض الشّعراء ؟

كان عليّ إذن أن أجمع مكتبتي المشتّتة وأرقع مِزقها المتناثرة .. وقد أنفقت وقتاً طويلاً في ذلك قبل أن أكتشف أنّ كلّ قطعةٍ توصل بنسيج المكتبة الكبير إلا وتزيدها تشظياً، وأنّي عبثاً أحاول بناء مكتبة، فإن هي إلا مكتباتُ الآخرين.

تلك المكتبات، مكتبات الآخرين، التي أقتات عليها كطائرٍ قَمّام هي المادةُ الخامّ لهذا الكتاب، نسيجها الخيالُ والتّأويل والكثير من الأكاذيب، والقليل فقط من الحقائق، حيث تكفي أحياناً عبارةٌ قرأتها هنا أو هناك، أو حتّى سمعتها، لوضع أسس مكتبةٍ من المكتبات، وكلّما ابتعدت الذكرى إلا وصارت المكتبة أوضح وإن لم يعد يربطها أيّ رابطٍ مع ما قرأتُه في الأصل. هذا الكتابُ إذن مكتبةٌ مُفهرسة، دون أيّ نظامٍ منطقيّ، لعديد المكتبات التي تواطأتُ مع أصحابها على بنائها أو إبرازها أوَ حتّى نقضها وهدمها... لن أتحدّث عن التّشابهات التي قد يلفيها القارئ بين ما هو مكتوب هنا وما قد يجده في كتبٍ أخرى، ولا عن التّناقضات التي تنطوي عليها هذه المكتبة، فتلك أمورٌ قلّما يحفل بها قيّم مكتبة !

II. مكتباتُهم

مكتبة هاوكينغ

بحساب نسبة ازديادنا اطراداً وما تحتله أجسادُنا من مساحة على اليابس -وما هو مرشح ليبس- فإنّ الرّقم الذي يمثّل نسبتنا نحن البشر من مجموع ساكنة البسيطة يضّاعَف، بحسب ستيفن هاوكينغ، مرةّ كلّ أربعين سنة، وهو ما يفيد أن زحفنا على اليابس يزداد شراسة رغم كلّ ما نبرع في ابتكاره من أساليب إبادة ومحو وإفناء.. وإذا ما نحن أضفنا إلى المعادلةِ الزحفَ المقابل الذي يضطلع به سيد المحو/ الماءُ فإنّ الصراع على آخر متر يابس هو قادم لا محالة !

الإشكال العميق مع زحف البشر هو زحف ملاحقهم، كلّ كائن بشريّ هو متوالية من الملاحق اللاّ حدّ لها، مِن مأكول ومشروب وملبوس ووسائط حياة ووسائل ترف.. فلو اقتصر كل واحد منّا على ملبوس واحد وهاتف خلويّ واحد وسيارة واحدة لكان عدد الأشياء بعدَدِنا وهو ما لا يحلّ المشكل... استباقاً لأزمة النزاع على مواطئ الأقدام وتأجيلاً لها يسعى تقنيُّونا اليوم إلى تقزيم الأشياء وتعديد وظائفها أو ابتكار بدائل أخف ثقلاً لها... ستنقلبُ فكرة المكتبة والحالُ تلك إلى فكرة المتحف، ما حاجتنا إلى مكتبات في عالم لن نجد فيه حتّى أين نسكن ؟ وما حاجتنا إلى كتب في عصر لا قيمة فيه للمكتوب ولمستلزمات صناعته ؟

من المؤكّد أنّ الكتاب كما تعارفنا عليه ورقاً هو إلى زوال في ذاك الزمن الذي نفترضه هنا، حتّى أنّ جوارح أحفادنا ستكون قد تكيّفت على قراءة الأحرف في حوامل أخرى غير الورق، حتّى غدت معها حروفُ حامِلنا الآني

صعبة الإدراكِ، تماماً مثلما غدت رسومُ أسلافنا مستعصيةً على جوارحِنا.. سيَفي التطوّر البيولوجي والتقنيّ بحلٍّ مؤقت لزحمة الكتب، حيثُ إنّ قرصاً مدمجاً واحداً، دون شطط في التخيّل، يستطيع حمل مكتبة بأكملها، هكذا يتجوّل كل شخص حاملاً مكتبته دون أن يشدّد الخناق على فضائنا المشترك. بيد أنّ طبيعة الغُراب عند أحفادنا ستمنعهم من إتلاف الكتب الورقية جميعها، وإن كانوا قد حسموا في قرار عدم طبع المزيد من الكتب.. لكن تحت وطأة تضاؤل اليابسة سيتقرّرُ الاحتفاظُ بنسخة واحدة جيدّة الطبع من كلّ كتاب، وإعدام ما تبقى من النّسخ.. وتماماً كما هو الأمر في فيلم إكِلبريوم، الذي سيكون قد تحولّ آنذاك إلى أحد كلاسيكيات فنّ السينما، ستنتظم دوريات وظيفتها التنقيب عن مخبئي الكتب وإعدام ما بحوزتهم، وستنشأ بالضرورة فئة من مقتني الكتب/ التحف الفريدة، وتنشط سوق سريّة لهذا الغرض...

بيد أن المكتبة / المتحف لن تسلم في زمن متقدّم من نظرة اشتهاء يسلّطها عليها المتعطشون إلى مساحات تعمير فارغة، وينتهي الأمر بانتصار غريزة الحياة على غريزة الفنّ... لحظتها سنهتدي إلى عادة أدبية ظلّ تاريخها يَنُوس بين الذمّ والتحبيب، ألا وهي عادة الانتخاب، هكذا سيوكل إلى متخصصين في الميدان إعدادُ قائمةٍ بأهمّ الكتب وأخطرها وأحقّها بالخلود.. وبغض النظر عن المعايير المعتمدة في اختيار الكتب، وهي معايير لن تشذّ عن الذاتية المجبول عليها نقص البشر، فإنّ الحلّ المؤقت سيؤدي إلى تقليص حجم المكتبة الوحيدة التي يمتلكها البشر... تقليصها حتى حين... سنضطر بعدها إلى المُضي قُدماً في اختيارنا المُنتخبات... هكذا ستصير لنا في زمن قياسي منتخباتٌ للمنتخباتِ، وبعدها منتخباتٌ لمنتخباتِ المنتخباتِ ثم منتخباتٌ لمنتخباتِ منتخباتِ المنتخباتِ، فمنتخباتٌ لمنتخباتِ منتخباتِ منتخباتِ المنتخباتِ... وهلّم انتخاباً...

غير أنّ عملية الانتخاب ليست مثلَ مسافات زينون غير القابلة قسمتُها للانتهاء.. ذاك أنّ الإفراط في حُمّى الانتخاب سيضعنا عاجلاً أم عاجلاً أمام إشكالية الكتابِ الأخيرِ... أيّ كتاب سنحتفظ به في آخر المطاف كشاهدِ تاريخ على كلمة ما زالت تحتفظ بها اللّغة وإن اختفى ما تشير إليه... يلزمنا كتابٌ

واحدٌ نحفظُهُ دليلاً على الوجود الفعلي لشيء يسمى الكُتب... سيتمّ الاتفاق على شروط الكتاب؛ لعلّ أهم شرط هو أن يكون الكتاب بلغته الأصل لا منقولاً أو مترجماً وأن يكون أشمل الكتب وأدلّها... لكن أيّ كتاب يمكن اختياره... ؟

سنفترض بعض الافتراضات التي تجنّبنا الوقوع في جدالات جانبية تضيع خيطنا الهادي. سنفترض أوّلاً أنّ مصيرنا المحتوم قد وحدّنا ولم يعد هناك وجودٌ لنزاعات حول الدين والهويّة.. هكذا لا يطالب قومٌ مخصوصون بكتاب يمثّلهم دون غيرهم، وسنفترض كذلك أن إشكال القصور اللّغوي قد تمّ تجاوزه، وسنفترض أيضاً أنّ بعض ميادين المعرفة، كالفيزياء واللّسانيات و...، قد تخلّت طواعية عن حقّها في الكتب، لنجزم دون تحيّز أنّ الكتاب سيكون كتاب أدب ! أيّ الأعمال الأدبية يمكن أن يكون كتابَ الكتبِ ؟

سيزعم بعض الهراطقة الذين يتردّد على لسانهم صدى الكاتب الأرجنتيني بورخيس أنّ كلّ كتاب هو نفسه الكتبُ جميعها، بحيث أنّ أيّ اختيارٍ عشوائي لا ينفي صفة التمثيلية عن الكتاب المُنتقى... خصوصاً وأنّنا حفظنا الكتب جميعها على حوامل غير ورقية وليس الكتاب غير صورة لما يمكن أن يكون عليه أيّ كتاب، حتّى أنّ الاختيار ينبغي أن ينصبّ على معايير مادية كالمتانة والقدرة على الصمود بدل المعايير الفنيّة والأدبية التي لا معنى لها.

سنتركُ أحفادنا لاختيارهم ونشحذ خيالنا اللّحظة للتفكير في أي الكتب أحقّها بالخلود. لعلّه الكتب جميعها.. أو لعلّه كتبُنا.. ماذا لو تحت تأثير التفكير في ما كتِبَ هنا قام كلّ واحد منّا بإخفاء نسخ من كتبه، ككنوز يُعثر عليها مستقبلاً ؟

يفكّر خيالي تجاوزاً في حلّ يستقيه من الكتاب نفسه الذي خلق في ذهني زوبعة المشكلة، أقصد كتاب ستيفن هاوكينغ الكون في قشرة جوز، فإذا كانت شاعرية العنوان الذي اقترضه الفيزيائي من هاملت، تنطوي على إمكانية سجن الكون كلّه في قشرة جوز، فمن المؤكد أنّ بوسعنا اختزال المكتبات فيزيائياً في أبعاد لا تُضيّق علينا الخناق.

بيد أنّ كلّ ما سبق لا يجاوزُ طورَ التخييلات الأدبية، فمن المؤكد أنّنا نحن البشر سننقرض بمدة طويلة قبل اختفاء الكتب، مفسحين المجال أمام مملكة الصراصير التي تنبأ بها سِدريك بلفريج !

مكتبة بنيامين

المكتبةُ خطّ بين نقطتين، مسارٌ مهما تشّعب وطالَ له بداية ونهاية.

ليس بوسع جامع الكتب أن يحدّد بالضبط اللّحظة التي تحوّلت كتبه إلى مكتبة، كتابٌ واحد لا يكفي قطعاً للقول بأنّنا نملك مكتبة، لكن كتاباً واحداً بالضبط، كتاباً من الصّعب على الذاكرة تذكّره هو ما كان بداية الوعي بتشكّل المكتبة.

يذهب بعض البنيويّين المولعين بالحسابات الرياضيّة إلى أنّ الرقم المفتاح في دراسة العلاقات هو الرقم اثنان لأنّه الرّقم الذي يكشف عن القاعدة، الشيء لا يدخل في سلسلة إلا متى أضيف له شبيهه أو ما تجمعه به خصيصة من الخصائص.. من هنا تبقى المكتبة قابلة لاحتضان ما لا عدّ له من السلاسل، من مجموعات الكتب، قُل من المكتبات. ويعرِف المصنّفون والجامعون ما تنطوي عليه مكتباتهم من سلاسل لا منتهية من الكتب.. كلّ كتابين تجمعهما خصيصة ما، هما قابلان للدخول في مسلسل جمعٍ وتصنيف قد لا يدركه أيٌّ كان. ومن هنا تلك الحركة الفطرية الساذجة التي تدفع اليد إلى رصف كتابين من لغة واحدة جنباً إلى جنب، أو وضع ديوان شعري لصق آخر، أو تجميع كُتب مؤلف واحد في مكان واحد، أو... .

وحتّى لا يغضب بورخيس سنستثني كتاب **ألف ليلة وليلة** طبعاً، الذي لا يقبل الدخول في أيّ سلسلة، ويتنطّع عن نسج العلاقات مع غيره من الكتب، لذا خصّه الكاتب الأرجنتيني برفّ كامل من رفوف مكتبته الخاصة.

كان فالتر بنيامين أحدَ القلائل الذين فهموا المكتبة لا كفضاء لحفظ الكتب وإنّما كسيرورة لا نكاد نستبين بدايتها، إذ يصعبُ الإمساك بأول كتاب تقرّرت معه المكتبة ككيان موجود ومعترف به، مثلما يصعب تحديد أول كتاب قرأناه. لكنّها فعل يصبو إلى النهاية، تلك النهاية التي وحدها ينكشف فيها السرّ ونستطيع الإجابة عن السؤال: لمَ جمعتُ كلّ هذه الكتب؟ بالطبع الأمر مستحيل من وجهة نظر منطقية صرف، فأن نعرف لمَ جمعنا كلّ الكتب، أن نجيب على هذا السؤال، هو عِدلُ أن نستطيع كتابة موتنا. فليس بوسع أحد أن يكتُب موته مثلما ليس بوسع أحد أن يشهد نهاية مكتبته، لأنّ سيرورة الجمع والتصنيف ما تنفك تستمرّ بحياتنا. لهذا يرى بنيامين أنّ معنى المكتبة كما وجودها لا ينكشفان إلا في مصيرها بعد وفاة صاحبها، في ما ستألو إليه بعد وفاته. حين يصير بوسع الآخرين أن ينظروا إليها من الخارج وأن يحاكموها كفعل انتهى وكأمر قُضي.

يستلزم الأمر السابق الإقرار بأنّ الانخراط في فعل المكتبة أمر فرديٌّ، إذ لا يُقبل البتّة أن ينخرط أحد في إكمال ما بدأه سابقه. إذ تُورَّث المكتبة تُعلن انتهاءَ عصر وبداية عصر آخر، وللوريث أن يحسب أنّه بدأ جمعَ مكتبته أو بعثرتها، بمائة كتاب أو ألف أو غيرها من الأرقام التي تفوق الواحد، لكن الأمر لا يلغي أنّه سينخرط في تاريخ مكتبة شخصية جديدة، ويحدّد تبعاً لإرادته مدى رغبته في خوض لعبة التصانيف وخلق مكتبات أخرى داخل مكتبته.

المكتبة، بالنسبة للمصنّف الجامع، في الحقيقة ليست أكثر من أداة إخفاء وتمييز، ما يهمُّ ليس الكتب بإطلاق، أي الكتب بألف لام، كلّ الكتب، وإنّما المهم تلك الكتب التي تتواشج وتأخذ بأيدي بعضها لتشكّل حلفاً استثنائياً داخل المكتبة.

«كان الفقيد مولعاً بجمع الكتبِ» عبارة لا معنى لها، مادامت لا تفعلُ أكثر من تقييد اسم الجامع ضمن سجلٍّ عريض من جامعي الكتب وحافظيها. لا تأخذ العبارة معناها إلا متى تسللت إليها نعوتٌ وأوصاف تخلخل بنية المكتبة وتقلّص حجمها وتعلن تميّزها. ما يجعل مكتبة بنيامين مميّزة ليس كونها مكتبة تحوي عدداً هائلاً من الكتب، أو بها كتب نادرة أو...، وإنّما بالضبط كون

صاحبها كان يبدي ولعاً خاصاً بكتب الأطفال وكتب المجانين، أولئك الذين، وإن اعترف لهم بادئ الرأي بامتلاك الحقيقة، إلا أنّهم انسحبوا إلى هامش القول، تماماً مثل بنيامين الذي اختار فلسفةً، وإن كانت مؤسِّسة (بكسر السين) بكلّ ما تحتمله الكلمة من معان، إلا أنّه سُحب إلى الهامش، هامش القراءة.

لنا أن نتخيّل حجم الكتب التي جمعها بنيامين قيد حياته، لكنّ مكتبته لحظة انكشفت، لم تأخذ معناها الفعليّ، إلا عبر المسارب الداخلية التي اعتنى بشقّها صاحبُها، عناية خاصة. من هنا ينبغي الاعتناء بمسألة جرد الكتب التي جمعها المفكّر قيد حياته ودراستها دراسة خارجية، محض وصفية، غير مغرقة في التفكير، قدر اعتنائنا بدراسة كتبه ومساءلة مقروئه. لأنّ فكّ أسرار الجمع والتصنيف ورسم الطُرق السريّة للحدائق المتشعّبة الداخلية للمكتبة، لن يقلّ فائدة عن فكّ مستغلقات فكر المؤلف.

وإن لم نكُ نملك من أمر الطريق شيئاً، حيثُ لا المنطلق اخترناه ولا الغاية سنشهدها، فلنا على الأقل الاضطلاع بالمسافة الفاصلة بين النّقطتين، تلك المسافة التي تتضاعف وتتشعّب عند العارفين إلى ما لا يحصى من الشعب، إلى ما لا عدّ له من المكتبات؛ المكتبات التي لا تصلح المكتبة الخُدعة، المكتبة التي يراها الجميع، إلا حجاباً يداريها، إلا صورة تُموّهها.

لربّما كان السّير «كما يُقال» خيراً من الوصول !

مكتبة كورتثار

لن نختلف في أنّ مشاكل القارئ تكاد تتموقّع كلّها بين حدَيّ الشحّ والوفرة. أن لا تجد ما تقرأه، بحيث تصيرُ محكوماً بشكلٍ أبديّ بقراءة وإعادة قراءة ما قرأتَه مراراً؛ أو أن تزدحم عندك الكتب بحيث تفقِد القدرة على القراءة تدريجياً وتتحوّل إلى مجرّد مقتني كتب. بالطّبع الوفرة أخطر من الندرة. فقانون الندرة يحفّز حواسك القرائية كلّها، بينما تُلقي بك الوفرة تدريجياً إلى مهاوي الخمول. لكن ثمّت ما هو أخطرُ من الوفرة والندرة معاً : الاجتياحُ التّام للكتب. أن تفيض الكُتب بحيث تجتاح العالمَ بأكمله وتغطّي المساحات التي كانت حتّى تلك اللّحظة مخصّصة لأشياء أخرى !

اِجتياح الكتب للعالم وتضاعف أعدادها بشكل لا يعرف التوقّف ينطوي في العمق على مسألة أخطر، وهي تضاعف عدد الكُتّاب بشكلٍ مريع، وتضاؤل نسبة القرّاء، حتّى ليكادون يصيرون جنساً عزيز المنال !

ماذا لو قرّر الجميع أن يصيروا كتّاباً ؟

سيتضاءلُ بالطّبع عدد القرّاء إلى أن ينعدم، فالكتّاب لا يمكن التّعويل عليهم في الاضطلاع بدور القرّاء، هم في الغالب الأعمّ قرّاءٌ سيّئون، وغالباً ما لا يقرؤون إلاّ أنفسهم. وحاجتهم إلى القرّاء تفوق بكثيرٍ حاجة القرّاء لهم، حتّى وإن تحصّنوا خلف ادّعاءات من قبيل : أكتُب لنفسي ! أفضّل أن يقرأني شخص واحد أو اثنان على أن تقرأني الجماهير الغفيرة ! ... بالطّبع، وعلى خلاف الوهم الشّائع، مهنة القارئ أصعب وأشقّ وأخطر من مهنة الكاتب، وضرورةُ القرّاء

تفوق الحاجة إلى كتّاب، لهذا كلّما تضاءلَ عدد القرّاء، سيسارع الكتّاب إلى ابتداع طرقٍ أعقد فأعقد لاستجلاب القرّاء. لن تنفع الإهداءات التعميميّة على الصّفحات الأولى للكتاب (من قبيل : إلى القارئ، وإلى القرّاء، وإلى قرّائي...) سيضطرّ كلّ كاتبٍ إلى إيراد لائحةٍ مفصّلةٍ بقرّائه، أو اسم قارئه مشفوعاً بعبارات التقدير والإعجاب، وستنشط سوقٌ خاصّة بالقرّاء، وتُفتتح وكالاتٌ متخصّصة في الوساطة بين الكتّاب والقرّاء، وتملأ الإعلانات كلّ مكانٍ : لدينا قرّاءٌ متمرّسون من سبع مناطق جغرافية وأربع لغاتٍ ! كاتبٌ جادٌّ يبحث عن قارئ (يستحسن إضافة تاء مربوطة بعد الهمزة)؛ تودّ تحسين دخلك، انضمّ إلى دورة تكوين القرّاء السّريعة، مدرّبونا كلّهم مؤهّلون ومعترف بشهاداتهم. ثمّ سيصير الأمر إلى دفع النّقود للحصول على قرّاء : تريد أن تُقرأ، عليك أن تدفع؛ بعض الكتّاب سيتعرّضون لعمليات نصبٍ واسعة النّطاق مشترين أصواتَ قرّاءٍ وهميّين لا وجودَ لهم؛ والبعض الآخر قد يبيع صوتَه كقارئ لكتّاب آخرين، مُعطياً كلّ الضّمانات الأكيدة بأنّه لن يغشّ ويقرأ لنفسه !

ومع التضاؤل المريع لعدد القرّاء، وقد صاروا الآن حُفنةً من البوهيميّين المتناثرين على امتداد خريطة العالم، هاربين من ملاحقة الكتّاب لهم، ستنشط عصاباتٌ دوليةٌ متخصّصة في اختطاف القرّاء وعائلاتهم، لتجبرهم تحت التّهديد بالتّصفية على قراءة من يدفع أكثر... سجونُ الحكّام وقد صاروا هم أيضاً كتّاباً معاقلُ لتعذيب القرّاء الذين ما يزالون يملكون ضميراً ويصرّون على التّمترس خلف مبدأٍ قديمٍ لا يكادُ يذكره أحدٌ، مبدإ يسمّى «الذّائقة الأدبيّة».

بالموازاة مع الحركة الشّاهدة على اختلال توازن العالم، والتي يتضاعف بموجبها عدد الكتّاب ويتضاءل عدد القرّاء، ستجتاحُ الكتابةُ كلّ شيء، مُنذرة بالغزو الذي تنبّأ به كاتبٌ أرجنتيني ينتمي إلى الزمن البائد الذي كان ما يزال يحتفظ بقدر ولو يسيرٍ من النّظام : «خوليو كورتثار». سيستنزف الكتّابُ كلّ الورق، ثمّ يقطعون كلّ الأشجار ليحوّلوها إلى ورق، وتتضاعف المطبوعات (شأنها شأن الأرانب في شقّة الصّديقة الباريسية) لتجتاح كلّ مساحة اليابس، كلّ شيء قابلٍ لأن يصير ورقاً (خشب، خرق، تبن، روثُ بهائم...) يتمّ تحويلُه

إلى ورق، ومطبوعات سرعان ما تمتلئ بدورها. ولأنّها لا تُعرض للبيع ولا للقراءة العموميّة (من سيقرؤها والجميع كتّابٌ ؟)، يُضطرّ سريعاً إلى التّخلص منها بإلقائها في المياه : ملايير الأطنان من الورق الذي تعجّن وصار كالأسمنت واصلاً بين قسمَيْ العالم (الغامر والعامر) في كتلةٍ واحدةٍ يجوبها الكتّابُ حاملينَ أقلامهم يملؤون بها كلّ شبرٍ فارغ من أطلال العالم الذي غدا مجرّد قرطاسٍ مهولٍ يحمل في كلِّ ميليمتر منه آثار الكتابة التي لا أحد يعرف جدواها، ولا الدّافع لها في زمن أُلقيَ فيه إلى مهاوي النسيان بشخص كان يدعى ذات زمنٍ: القارئ !

مكتبة ابن سينا

كم مرّة نحتاج دخول مكتبة حتى نحسب من روّادها ؟ هل تنكشف المكتبة في زيارة واحدة، أم لا تكشف المكتبة عن ألغازها إلا بتواتر الزيارات وتقليب الرّفوف ؟

بعض المكتبات لم تكشف نفسها لبعض القراء إلا مرّة واحدة. بل هي لم تحز قيمتها إلا بانغلاقها دون أيدي المنقِّبين. مكتبات ألغاز، لا تنفتح إلا مرّة واحدة، لسبب معيّن، إن لم نقل لحكمة معيّنة، وتدعوك للاستلذاذ بما خبّأته دون أيّ عاشق. وفي تلك اللّحظة الوحيدة الفاصلة بين زمانين، أنت مطالبٌ بالاضطلاع بأقسى التجارب وأمتعها : الإحاطة بمكتبة بأكملها.

في سيرة ابن سينا وشقيقة الحارث المتخيّلة، وصف خيالي ممتع، للخزانة / المغارة التي كانت تفتح مرّة واحدة كلّ سنة ولا تستمّر لأكثر من ساعة، ساعة واحدة ينبغي أن تكفيك لكي تنهل ما تريد، وبعدها ستنغلق المكتبة على من يتأخّر ليقضي عاماً بأكمله داخلها، عاماً يقضي فيه من الجوع والعطش. مكتبة تنكشف بهذه الطريقة، ساعةُ معرفةٍ وفسحة سنةٍ من النسيان، هكذا تنغلق المكتبة على سرّها الأزلي، إذ ليس من اليسير حساب كم يلزمك من ساعة / سنة لإتمام قراءة كتاب واحد من كتب المكتبة، بله الإلمام بسرّها ! سرّ المكتبة الذي افتضه الشقيقان، إذ صنعا رقائق بصل مغذّية واختبآ في المكتبة حين خروج كلّ من دخلها، ونعما بفك أسرار كلّ الطلاسم والتعازيم السحرية. امتلكا سرّ المكتبة فامتلكا العالم.

السؤال الآن : ماذا لو انكشفت لك مغارة علي بابا ؟ ماذا لو فتحت أمامك المكتبة التي لا تفتح مرّتين. أيّ فيزيولوجيا وأي جهاز عصبي تحتاجه يداك كي لا تصيبهما حمّى العبث ؟ على يديك أن تحسنا التفكير إزاء شلال الوفرة الذي يفيض من كلّ جانب. ولنذكر هنا عرَضاً أنّ هاتين اليدين اللّتين صارتا علامة بارزة على إنسانيتك، لا تخشيان العوز والفقر بقدر ما تخشيان الوفرة؛ أن تتدفّق الكتب من كلّ الجهات، حتّى يغدو متعذّراً على اليد اختيار وجهتها. ماذا ستختار ؟ هل ستتوجّه يدك إلى أول كتاب تصادفه أم تقفز على أكوام كتب وكأنك مدفوع بغريزة لست تدري منبعها نحو الكتاب الذي يناديك مغناطيسه، بحيث ستفترض أنّك ما عشت عمرك إلا مُقيّضاً لهذا الكتاب، ولم يكتب هذا الكتاب إلا مُقيّضاً لك !

لاشكّ أن كلّ ما رسمناه من سياسات في أذهاننا آيل إلى تغيير لحظةَ ولوجنا المكتبة التي لم نتصوّرها إلا حلماً. تماماً مثلما غيّر رسّامُ المنمنمات التركي ومعلّمه خطّتهما، في رواية اسمي أحمر لأورهان باموك، حين انصرفا عن الغاية التي دفعت السلطان إلى فتح باب مكتبته السحريّة أمامهما، وبدل أن ينظرا ما من شأنه أن يكشف آثارَ القاتل الممعن في تصفية الرّسامين، استبّدت بهما حمّى تقفي آثار باهزاد وأساتذة الرّسم القدامى. نحنُ أيضاً قرّاء باموك اكتشفنا لحظتها أنّ كلّ تلك الرواية الضخمة لم تكتب إلا لتضم ذلك الفصل الذي يدخلنا عالم المكتبة السلطانية، مكتبة تخفي اللّغز، لكنّها نفسها تتخفّى كلغز بين صفحات الكتاب، في ذلك الفصل وحده يتوقّف زمن السرد ونغرق فيما يشبه الحلم مأخوذين بما يقفز من الرواية المفتوحة بين أيدينا، وفي ذهننا سؤال واحدٌ : كيف يعقلُ أن ينطوي المتناهي على اللامتناهي ؟ كي تسكن هذه المكتبة اللاحدّ لها في هذا الكتاب المحدود ؟

نعيشُ كلّنا، نحن القرّاء، وبنا عطش لزيارة مكتبات لم يلجها غيرنا، ربّما فعل الدخول وحده دون تصفّح أيّ كتاب له لذّة فائقة، أن تحصي عدد المكتبات التي زرتها لا يقلّ متعة عن إحصاء عدد الكتب التي قرأتها. شأننا شأن المتصوّفة الذين يحلمون بزيارة مكتبة جبل قاف، ذاك الجبل المحايث لعالمنا، المخالط له

والمنفصل عنه في الآن نفسه.

ماذا لو تخيّلنا أنّ هذه المكتبة ليست سوى كتاب واحد لا غير ؟ كتاب وإن ضبطت اليد إيقاعَ تصفّحه، إلا أنّ العين لم تتمرّن بعد على قراءة خارطته، كتاب ينفلت ما إن يُمسَك، لا شيء فيه يعاد أو يتكرّر، مثله مثل **كتاب الرّمل** لبورخيس ؟ ماذا لو منحنا الخيال إجازة مؤقّتة وتأملنا في أوّل مكتبة تصادفنا، مكتبتنا الشخصيّة الخاصة ؟ أليست كلّ مكتبة مفتوحة ومشرعة دائمةَ التبدّل والتغيّر ؟ أليست مكتباتنا التي نعتقد أنّنا بنيناها كتاباً كتاباً هي نفسها مكتبات تكشف كلّ لحظة عمّا يفاجئنا، عمّا يشذّ عن ترتيباتنا، وعمّا يجعلنا نعتقد أنّ مكتباتنا هي نفسها حظّ تاريخي ينكشف كلّ لحظة نقلبّ رفوفه، ثمّ ما يلبث أن ينغلق إلى الأبد ؟

مكتبة ترانسترومر

لقد صاروا يعوّضونها اليوم بالبلاستيك والحديد، بل وحتى الورق المقوّى القابل بتفاهة لأن يعاد تدويره !

لطالما شكّل الخشب المادة الأثيرة للمكتبات. الخشب هيولى الكتابة، فالقلم والورق يمتحان أناقتهما من الخشب، (أو على الأقلّ ممّا يُشاكله من مواد)، حتّى أنّ القلم في جناسه مع الكلمة اللاتينية Calamus يشير إلى قصبةٍ يُقلّم (وهذا الفعل ينطوي أيضاً على معنى التحويل إلى قلم) أحد طرفَيها لكي تتحوّل إلى أداة كتابة.

المكتبة التي لا يقوم هيكلها على أكتاف الخشب، تكاد تكون مكتبةً زائفة، مكتبة تثير الشّبهات، مكتبة تصلح لإيداع أرشيف المصلحات الحكومية وملفّات المرضى، لكن لا يمكن أن تحوز شرف احتضان الكتب النّبيلة، والتمتّع بملمس التسفير الفخم. إنّها مكتبةٌ تقطع مع الأصل المشترك بينها وبين الكتب والأقلام.

أصل الورق الغابةُ وأصل الأقلام كذلك، لهذا فإنّ لعبة الفناء والبقاء تُلعب تحديداً في الغابة. قطعُ هكتارات من الغابات، هو بمثابة محوٍ لذاكرة الأرض، لكنّه محوٌ سينتهي جزءٌ منه في شكلِ أدواتٍ (أوراق وأقلام) تدوّن هذه الذاكرة نفسها !

لا يقلّ التفكير في المكتبة بما هي رفوف قائمةٌ، المكتبة الفارغة، المكتبة بلا كتب، قلت لا يقلّ التفكير فيها أهميّةً عن التّفكير في المكتبة بما هي حاصلُ عددٍ من الكتب.

من هنا يمكن أن نفهم ولع ترونسترومر بالمكتبة الواقفة في فراغها، المكتبة التي تستعد أن تحتضن أيّ كتاب، المكتبة في فراغها الذي يستصرخ الكتُبَ.

فراغ المكتبة هو حنينها الأول للصمت، وفيه فقط نتعرّف معنى القراءة كفسحات صمت. الفراغ الموجود ما بين كتابين هو الكتابةُ الأكثر امتلاءً في الوجود، هو القابلية لأن نكتب أيّ شيء، فما بين الكتابين ثمّت ملايين العوالم الممكنة في حين لا يتجاوز الكتابان نفسهما عالمين على وجه التخصيص. كلّ فجوةٍ هي عددٌ لا متناهٍ من الكتب الممكنة، لكن ما إن يتمّ ردمها بكتابٍ ما حتّى ينتفيَ كلّ إمكانٍ للذهاب أبعد.

لا شيء أكثر إثارة للفزع من منظر مكتبة مزدحمةٍ تماماً، مكتبة انتهت، وما عاد بالإمكان التفكير فيها : الكتب تخنق المكتبة على مهل.

ينسجم ما سبقَ بشكل كبير مع رؤية شاعر الصّمت (ترونسترومر) للوجود، ويصوّرُ الشاعر السويديّ في إحدى سياحاته الكثيرة على وجه الأرض كيفَ قصد الجزيرة المكسوة بالثلج بعدما ملّ الحياة بين أولئك الذين يأتون حاملين كلمات دونما لغة، وهناك على الصفحة البيضاء صادف أقدام آثار أيّل، أقدام آثار لا كلمات بها لكنّها لغةٌ.

في الواقع، المكتبة الفعلية هي الفراغات التي لم تمتلئ بعد، فهي التي تماثل خطوات الأيّل على الثلج، هي تحتمل كلّ التأويلات الممكنة، بخلاف الحيّز الذي يشمل الكتب، والذي يحتوي عناوين محدّدة وتواريخ فكرية معيّنة سلفاً. العلاقة بين فراغ المكتب والحيّز الذي تشغله الكتب، أشبه ما يكون بالعلاقة بين آثار حوافر الأيّل على الثلج وكلام البشر.

فراغ المكتبة يتحدّث لغة فعلية، لغة ما يمكن أن يصير، بينما تتحدّث الأجزاء التي تشغلها الكتب لغةَ ما كانَ، لغة ما تمّ وانقضى، لغةَ ما لا يمكن أن يكون غير ما هوَ عليه. لهذا يمكن أن نشبّه الفراغات في المكتبة بالمسام الضرورية للتّنفس، تلك المسام التي تأخذ في الضيق شيئاً فشيئاً إلى أن تموت المكتبة تماماً تحت ثقل الكتب !

ومثلما «يحدث أن يأتي الموت في منتصف الحياة ليأخذ مقاسنا، وتُنسى هذه الزيارة لتستأنَفَ الحياة بينما الكفن يُحاط في غفلة منّا»؛ مثل ذلك تماماً، الكُتبُ هي الموت الذي يأتي ليأخذ مقاس المكتبة، تموت المكتبة لحظة لا يبقى فيها فراغ يحتمل حمل العلامات، وبعض المكتبات تحمل موتها في فراغها، إذا ما أُسس هذا الفراغ قياسا إلى امتلاء مفترض، أي إذا ما رصّت رفوفها وثبّتت استناداً إلى مقاسات محدّدة تفرضها الكتب، أن تحدّد شكل المكتبة بمقاسات كتب محدّدة هو التصريح الضمني بوفاة المكتبة !

لا كلمات هنا، لكن ثمّت لغة !

لا كتب هنا، لكن ثمّت مكتبة !

مكتبة أمبيرتو إيكو

ما تبنيه الإنسانية جمعاء يدمّره رجلٌ واحدٌ فقط !

يكفي كتابٌ واحدٌ لتدمير مكتبةٍ بأكملها ! نظرياً، وحتّى عملياً، الأمر بسيطٌ جداً ويمكن التّدليل عليه دون مشقّة : احتراقُ كتابٍ واحدٍ قد يجرّ معه احتراق المكتبة بأكملها؛ دسُّ كتابٍ واحدٍ موبوءٍ بالأَرَضة قد يؤدّي إلى إتلاف الكتب جميعها.

على أنّ الحرائق وحشرات الأرضة، وجميع الكوارث البيّنة، ليست وحدها ما يتهدّد الكتب. لنفترض أنّ كتاباً واحداً فقط، كتاباً مختلفاً ينطوي على لعنة ما، يتمّ دسّه كتعويذة بين باقي الكتب، ويكون هدفه الخفيّ تدمير المكتبة بأكملها. سيكون الأمر أشبه بقاتل المدعوّين إلى الجزيرة في رواية أغاثا كريستي ثمّ لم يبقَ منهم أحد !.

الرّهانُ الأكبر في الرّواية البوليسية هو إخفاء القاتل ما أمكن، إطالة أمد اختفائه، وهو الرّهان نفسه الذي يواجه من يرغب في تدمير مكتبة عبر دسّ كتابٍ : كيف أخفي الكتاب الملعون بين باقي الكُتب ؟

المثال الذي قد يقفز إلى ذهن القرّاء مباشرةً هو اسم الوردة لأومبيرتو إيكو، حيث عمد أحد الرّهبان إلى إخفاء الكتاب الملعون الكوميديا لأرسطو بين باقي كتب المكتبة. موضوع الكوميديا موضوع خطيرٌ لأنّه يرتبط بفضيلة الضحك «المكروهة»، كان من الممكن إذن التّخلّص من الكتاب ببساطة، عبر حرقه مثلاً، لكنّ المشكلة تكمن في أنّ الكتابَ نُسخةٌ فريدةٌ، وبالتّالي قد يكون

في إعدامه إعدام نوعٍ بأكملِه، ولا أحد يضمن أيّ اختلالٍ قد يصيب الوجود إذا ما اختفى فجأةً نوعٌ بأكمله. لهذا ينبغي أن يتمّ في آنٍ الاحتفاظُ بالكتاب وضمان أن لا يُفصَح عن مضمونه «الشّرير». وهنا أيضاً كان بالإمكان خزن الكتاب في مكانٍ معزولٍ لا يعرفه أحد. بيد أنّ هذه المجازفة تنطوي أيضاً على معضلات كبرى : إنّ إخفاء الكتاب وحرزه سيؤدّي إلى زيادة إبرازه قياساً إلى غيره من الكتب، بالإضافة إلى أنّه سيفقد خاصيته الأساسية ككتابٍ، أي إمكان أن يُتصفَّح ويُقرأ. حلاً للمعضلات السّابقة كلّها، دسّ الرّاهب الكتاب بين باقي الكتب بعد أن ذهنَ صفحاته بالسمّ، فكان كلّ من يتصفّح الكتاب يلقى حتفه؛ فتكون ضريبةُ الضّحكِ الموت وأخذ سرّ الكتاب إلى القبر. بالطّبع ليس انتقام كتاب **الكوميديا** موجّها بشكلٍ مباشرٍ إلى باقي الكتب، فهو لا يعدمُ المكتبةَ فزيائياً، لكنّه يفعل ما هو أشنع، فمع كلّ قارئ يموت تخسر باقي الكتب إمكان أن تُقرأ، إمكان أن يمنحها قارئ فرصة الحياة واستنشاق الهواء. الجريمة المتسلسلة في **اسم الوردة** هي في الواقع جريمةٌ في حقّ الكتب.

نعثر في نصوص أخرى على موضوعات مماثلة، موضوعةُ الكتاب القاتل، الذي يقتاتُ على روح القارئ، إذ يصرفه عن قراءة ما سواه، يفرض عليه حالة من الاستلاب الكليّ. ذاك شأن **كتاب الرّمل** الذي قايضه بورخيس **بإنجيل ويكليف** المكتوب بالخطّ القوطي، وكتاب أحمد بوزفور العجيب في **قصّة المكتبة**. كلا الكتابَين لانهائيٌّ، لأنّهما مثل نهر هيراقليطس لا تنفتح فيهما الصّفحةُ الواحدةُ مرَّتين (وأتساءَل أليست هذه الخاصية من طبيعة الكتب جميعها ! ؟). وكلا الكتابيَن يعدمان ما تبقى من كتب عن طريق صرف مالكهما عمّا سواهما. القارئ يتعلّق بهما تعلّقاً مرضياً، الأوّل لا يستطيع إنهاء الكتاب لأنّه لا نهائي بعدد حبات الرّمل، والثاني يوقن أن لا حاجة به إلى أيّ كتاب ما دام يملك كتاب المكتبة، الكتابُ الذي هوَ جُماع الكتب كلّها. على أنّ الكتاب الذي يبدو في الوهلة الأولى مثل اللّقية والحظّ السّعيد، سرعان ما يكشفُ عن جانبه الآخر، عن كونه كتاباً قاتلاً.

فالواقعُ أنّ الكتاب (كلّ كتابٍ) هو من يقرأ القارئ : يتغذّى على لياليه

ويعتاش على فكره وأرقه، يسعى إلى تملّكه تماماً بحيث لا ينظر القارئ إلى ما سواه؛ وحين يتعلّق الأمر بكتابٍ مثل كتاب الرّمل أو كتاب المكتبة، فإنّ الأمر يتعدى إخفاء باقي الكتُب إلى إخفاء العالم بأكمله. لهذا كان على القارئين معاً التّخلّص من الكتاب. الأوّل هابَ الحرقَ، لأنّ حرق كتابٍ لا نهائي قد يجرّ معه حريقاً لا نهائياً، لهذا اكتفى برميه في شارع مهملٍ، ربّما آملاً في أنّ تنتقل لعنته إلى قارئ آخر، فيختفي عالم آخر بدلاً من عالمه هو؛ أمّا الثّاني فقد أنقذته مكتبة الحياة من مكتبة الكتاب !

لا ريب في أنّ في كلّ مكتبةٍ كتابا ملعونا بدرجة أو بأخرى، كتابا لا يرغب صاحب المكتبة في أن نتصفّحه، وإن كان يضعه بإهمالٍ بين باقي كتبه، كتابا يترصّد باقي الكتب، وينتظر اللّحظة التي ينقضّ فيها على عالم القارئ ليمحُوَ ما سواه، مثل لحنٍ متعذّر النّسيان، ينشب أظافره في الذّاكرة فلا يعود اللّسان يرطن بسواه. ثمّت أناسٌ لم يقرؤوا طيلةَ حياتهم إلا كتاباً واحداً، ولم يحبّوا سوى امرأةٍ واحدة، ولا يردّدون إلا أغنية واحدةً، ومع ذلك هم لم يَخبروا تجربة الكتاب / المرأة اللّحن الواحد / الواحدة، التي هي مثل لبنة سينمار تختفي في موضع ما، كأيّ لبنةٍ أخرى لا شرفَ لها على ما سواها، لكنّها تهدّد البنيان بأكمله.

مثل لبنة المهندس سينمار، لا سبيل إلى التّخلّص من لعنة الكتاب القاتل. يبقى حلّ واحدٌ إذن : قتل القيّم على المكتبة !

مكتبة إيلاي

ورقة تقنية

عنوان الفيلم : كتابُ إيلي

إنتاج : أمريكي

تاريخ العرض : 15 يناير 2010

المخرج : الأخوَان هيوز

الممثّلون الأساسيون : دِنزل واشنطون، غاري أولدمان، ميلا كونيس، راي ستيفنسون، جينفر بيلز

سينوبسيس :

في زمن ينتمي إلى المستقبل القريب، تتحوّل أمريكا إلى أرض قفرٍ، مُدنها خرائبُ وطُرقها كمائنُ تتربّص فيها عصابات المجرمين. ومنذ سنواتٍ عديدة، يطرق إيلي الأرض وحيداً، صاداً الاعتداءات ومقاتلاً للبقاء. وحين يصل إلى الخرائب التي كانت فيما مضى تسمّى كاليفورنيا، يواجه كارنيتجي، الرّجل الخطير الذي لا يمكن أن يحول شيء بينه وبين إرادته وفرض سلطته على الجماعة الصّغيرة التي يحكمها. يلتقي إيلي أيضاً بالجميلة سولارا التي تكتشف أنّ كارنيتجي يخطّط لبسط سيطرته على العالم بأكمله. يتمكّن إيلي من الهرب، فتتبعه سولارا... وعلى الرّغم من أنّه عازمٌ على مواصلة طريقه، إلا أنّه يوقن أنّ مصير سولارا صار مرتبطاً بمصيره... وبالطّبع الشّرير كارنيتجي يقفو أثرهما... لكنّه

لا يريد سولارا، يريد ما هو أخطر منها... رحلةٌ طويلةٌ من المخاطر ينهيها إيلي بالوصول إلى غايته : مكتبة العالم الأخيرة.

ما يشبه الورقة النقدية :

الأخَوان هيوز ومكتبة العالم :

يُمكن أن يصنّف فيلم كتابُ إيلاي ضمن الموجة الجديدة من أفلام التخييل المستقبلي. وما يجمع أفلام الموجة الجديدة على العموم هو التّصوّر الكارثي للعالم، إذ مقارنةً مع أفلام العقود السّابقة التي كانت تعقد الأملَ على التّطور العلمي وما سيلحقه من تغيّر جذري في نمط حياة البشر (رفاهية عيش، روبوتات تخدمنا، سيارات تحلّق في الأجواء، قهر الأمراض والشّيخوخة)؛ تحوّلَ النّزوعُ الاستشرافي اليومَ إلى التّعبير عن اليأس والخوف، وهو ما يترجمه الجوّ الكارثي المهيمن على فضاءات الأفلام التي تعالج المستقبل القريب (أوبئة تجتاح العالم، حروب نووية تقضي على الجنس البشري، عودة عدّاد الحضارة البشرية إلى الصّفر...)، ولا ريب في أنّ لهذا الاختيار ما يبرّره بالنّظر إلى الفترة التاريخية العصيبة التي يمرّ منها بنو البشر اليوم.

في ظلّ هذا الاتّجاه العامّ، أنجز الأخوان هيوز فيلمهما، الذي يعالج (من بين مواضيع أخرى)، وضعية المكتبة في زمن ما بعد الكارثة. لا شكّ في أنّ المكتبات والمتاحف ودور الفنّ ستكون من بين أوّل ما يطاله التّلف والنّسيان حال وقوع كارثة تعيد عقارب التّاريخ إلى لحظة البداية. رويداً رويداً سينسى البشر الكتب، إذ لا مطابع ولا دور نشر ولا مكتبات تحفظها، ولا حاجة بها أصلاً في عصر يقايَض فيه كأسُ ماء نصف نقيّ بثروة كاملة. والأجيال الجديدة قد تولد وتموت دون أن تسمع بشيء يدعى الكتاب. لكنّ رجلاً (أو رجالاً معدودين على رؤوس الأصابع) لا بدّ وأنّه ما يزالُ يذكر السلطة التي كان يمثّلها الكتاب (كتابٌ واحدٌ تحديداً)، ويعرف أنّ امتلاكه قد يعني امتلاك العالم.

حين يغمض كارنيجي عينَيه، يتذكّر ومضات بعيدةً من طفولته، يتراءى له طيف والده وهو يتحدّث عن كتابٍ (أو يتلو منه مقاطع) له وقع السّحر على

البشر. كتابٌ قدرتُه تتجاوز كلّ سلاحٍ أو سلطَة. يجنّد كارنيجي رجالَه بحثاً عن الكتاب (وهو الكتاب المقدّس بالطّبع)، يجوبون الآفاق الخربة، يجمعون كلّ ما يصادفونَه من تلك الأشياء الورقية التي تسمّى كتباً والتي لا يدرون ما الفائدة منها ولمَ يدفع كارنيجي بسخاءٍ مقابلها.

يسير إيلاي كسمكة سلمون مبرمجةٍ نحو غاية مسطّرةٍ سلفاً، لا شيء ينبغي أن يعيق طريقَه حتّى يُبلّغ الأمانة، والأمانة كتابٌ يحملُه، (هو آخر نسخة بقيت من الكتاب المقدّس)، حواسُه تكيّفت مع الزّمن المظلم، بحيث ما عاد بحاجةٍ إلى البصر ليعرف طريقَه. عقبتُه نحو إيصال الأمانة هو كارنيجي. فالكتاب الذي يحملُه هو نفسه الكتاب الذي يريده رجل السّلطة.

إلى حدود هذه النّقطة يمكن أن نلاحظ ببساطة أنّ الأخوين هيوز (وقبلها المؤلّف : غاري ويتا) قد وضعا مصير البشرية بأكملها رهنَ كتابٍ واحدٍ، وفي مفترق طرقٍ يؤدّي إلى طريقَين : نجاةُ إيلاي وبلوغه مقصده، بحيث يحفظ لبني البشر آخر نسخةٍ بقيت من الكتاب المقدّس؛ أو اصطيادهُ من طرف كارنيجي، ممّا يعني عدم وصول الأمانة، ودخول ما تبقى من الجنس البشريّ عهداً أشدّ حلكة ممّا يعيشه، عهداً ينضاف فيه التّسلّط المطلق إلى اليأس الشّامل. بيد أنّ عملاً مُختلفاً لا يمكن أن ينحاز إلا إلى اختيار ثالث، اختيارٍ مختلفٍ تماماً، اختيارٍ يؤكّد المصيرين السّابقين معاً وينفيهما في الآن نفسه : أن يصل الكتابُ ولا يصلَ، وأن يحصل كارنيجي على الكتاب ولا يحصل عليه !

عندما عاد كارنيجي إلى مأواه حاملاً غنيمتَه، أراد تصفّح الكتاب، لكنّه لم يجد بالكتاب حروفاً ليقرأها، كانَ الكتابُ محواً. بالطّبع لم يكن الكتابُ بياضاً، إذ لا معنى هنا لتصوّر كتابٍ أوراقُه بيضاء وكلُّ واحدٍ يخطُّ عليه حقيقتَه الخاصّة، وهو تصوّرٌ ممكنٌ ومقبول في سياقات أخرى، بل وحتّى واقعي وتمّ تجريبُه واختباره : لقد أصدر شيد سيموف سنة 2011 كتاباً بعنوان **ما الذي يفكّر فيه الرّجل غير الجنس ؟**، كتابٌ من حوالي مائتي صفحة لا شيء فيها سوى البياض! لكنّ كتابَ صاحبنا ليس بياضاً، هو بالفعل نسخة من الكتاب المقدّس، لكنّها نسخةٌ لا يستطيع قراءتها سوى من كان أعمى !

وحين وصل إيلاي إلى غايته مثخناً بجراحه، وعلى وشك أن يسلم الرّوح، لم يكن يملك سوى القليل من الوقت، لذا كان عليه أن يسرع بإملاء الكتاب الذي حفظَه حفظاً، لفرط ما مرّر أصابعه على صفحاته المنقوشة بحروف لا تقرؤها العيون. وحتّى لو أنّه لم يُضع الكتاب في الطّريق لما أجدى الكتابُ نفعاً، كان هو من ينبغي أن يصِلَ : كان هوَ نفسه الكتابَ. ولم يكن ينقصه سوى أن يترجم أفكاره ودمه وأعصابه وأنفاسه إلى كلماتٍ تخطُّ على أوراق بيضاء، ثمّ تُسفَّرُ الأوراق لتتّخذ شكلَ الكتاب المقدّس وتوضعَ جنباً إلى جنبٍ مع القرآن الكريم.

ولنا أن نتخيّل أنّ سفرَ إيلاي لم يكن منفرداً في زمنه، وإنّما انطلقَ من كلّ مكانٍ في الأرض العديد من حملةِ الكتُب، مثل سربٍ من أسماك السّلمون، أحدهم، وهو بائع تُحفٍ سابق، يحملُ نسخةً مختصرةً من كوميديا دانتي مكتوبة بإيطالية القرن العشرين، ونَسّاخٌ من إصفهان يحمل نسخةً منمنمةً من مصيبيت نامة لفريد الدّين العطار، وآخر... تجرّهم جميعاً الجاذبية نحو مكتبة العالم، تلك النواة التي صارت قبلةً يدور حولها من بيدهم مصيرُ العالم : القرّاء !

مكتبة باموك

تحرص على جمع الكتب قدر حرصك على حياتك. لكن حرصك على حياتك أيضاً نسبيٌّ. قد تقرر إيقافها فجأةً دون سابق تفكير. فإلى أيّ حدٍ أنت مستعدٌ للتخلّي عن الكتب ؟

بالنّسبة للمقتني لا شيء من ممتلكاته يضاهي قيمةَ مجموعةَ مقتنياته، بغض النّظر عن طبيعة تلك المقتنيات (طوابع، كتب، فناجين قهوة، ملابس نساءٍ داخلية...)؛ وتعبّر هذه القيمة عن نفسها عبر تموضُعها على طرفي نقيضٍ مع كلّ ما عداها، في عملية المقايضة : المقتني قد يبادل أيّ شيءٍ في سبيل الحصول على قطعة جديدة يضيفها إلى مجموعة مقتنياته : وهو أثناء ذلك لا يقايضُ شيئاً بشيءٍ وإنّما يوازن بين عالمين : يقتطعُ من العالم ليزيدَ في عالَمه !

ممّا سبق نستطيع أن ندرك أنّ تخلّي المقتني عن مجموعة مقتنياته هو بمثابة تخلّيه عن عالمه، بل عن العالم (بألف لام التّعريف)، ما دام قد كان على استعدادٍ بأن يفنيَ العالم بأكمله في سبيلها. ومن هنا أيضاً يتحدّد الفرق بين القارئ ومقتني الكتب. يكوّن القارئ بلا أدنى شكّ علاقةً مميّزة بكُتبه، لكنّه يستحضر هذه الكتبَ في الغالب الأعمّ كأفكار، كمضامين تجترّها ذاكرته بدرجاتٍ متفاوتةٍ من الشدّة والخفوت. بالطّبع هو يبني أيضاً علاقةً جسديّة بالكتب. كلّما استحضر القارئ روايةً من قبيل **المعلّم ومارغاريتا** أو **الغريب** لا تنفصل لديه ذكرى الأحداث والشّخوص والأفكار عن الانطباع الجسدي الذي خلّفه في يديه وأصابعه ملمس الورق والحجم المتباين بين العملين : ضخامة العمل من

حيث عدد صفحاته لا تخلّف في النّفس أثراً أقلّ من ذاك الذي تخلّفه شساعة السّرد وكثرة الأحداث ! لكنّ حضور الكتاب كمعطى ذهنيّ مجرّد (أفكار وأحداث وذكريات) يفوق حضوره الماديّ. على خلاف ذلك يعني الكتابُ في المقام الأوّل بالنّسبة للمقتني وجامع الكتب (والقارئ أيضاً قد يكون مقتنياً جامعاً للكتب)، مادةً محسوسة، شيئاً له وجود فيزيائيّ ماديّ، ويشغلُ حيّزاً خارج الذّهن !

لذّة الوجود المحسوس للكتب هي ما يُترجمُ لدى العديد من جامعي الكتب، في نهاية حياتهم، إلى انصرافٍ تامّ عن القراءة، واكتفاءٍ بالجمع فقط، ذاك أنّ رؤية المكتبة وحدها وإمكان لمس الكتب من حين إلى آخر يخلّفان في النّفس ما يكفي من اللّذة التي كنّا نتوهّم ذات زمنٍ أنّ القراءة هي السّبيل الوحيدة لبلوغها. قد نتصوّر ممّا سبقَ سهولة تخلّي قارئٍ عن كتابٍ ما إن يفرغ من قراءته، وأحياناً قد يتخلّى عنه حتّى قبل إتمام قراءته، وحتّى حين يتعلّق بكتابٍ من الكتب، قد يمنحه لشخصٍ آخر في انتظار أن يقتنيَ نسخةً أخرى منه، ما دام تعلّقه بالمضمون يسمو على تعلّقه بالمّادة. بالطّبع نستثني القرّاء الذين ينشئون علاقاتٍ خاصّة بكتبهم، علاقاتٍ حميمة تجعلهم يرون في النّسخة التي يمتلكونها من الكتاب نسخةً فريدةً لا سبيل إلى إبدالها بأيّ نسخةٍ أخرى، ما دامت تحمل آثارَ قراءتهم وأفكارهم وبصماتهم السريّة؛ وعلى رأس هؤلاءِ أولئكَ الذين يحوّلون الكتب إلى نُسخ شخصية مطبوعةٍ بالآثار الظّاهرة لقراءتهم، أولئك الذين تتحوّل القراءة عندهم إلى كتابةٍ وتخطيط على الكتاب، بحيث يحوّلون الكتاب إلى خريطةٍ وحدهم يقدرون على فكّ مغالقها وطَرْق مسالكها. هؤلاء يكادون يقتربون من المقتني من جهة تعلّقهم بالكتب، وإن اختلف سبب التّعلق.

وعلى غرار التّعلّق بأيّ مظهرٍ من مظاهر هذه الحياة (المال، الحبّ، المظاهر) لا يترجم التعلّق بالكتب عبر مدى الجهد الذي قد يبذله المرء في سبيل الاحتفاظ بها، وإنّما مدى استعداده للتخلّي عنها. شدّة تعلّقك بالشّيء تظهر في استعدادك للتخلّي عنه، لأنّ الاحتفاظ ليس وضعية إشكالية، على خلاف التخلّي. كان

الهنود الحمر يعبّرون عن تلك الوضعية تعبيراً بليغاً عبر طقس «البوتلاش» الذي يقوم على إفناء الممتلكات لامتلاكها، من يمتلك الشّيء هو من يتخلّص منه بحيث يتخفّف من كلّ ثقلٍ يمارسه عليه امتلاكه. من هذا المنظور لا يمكن أن نمتلك الكتبَ فعلياً إلاّ عبر إفنائها، عبر التخلّي عنها، إحراقها، بحيث نتخلّص من كلّ ثقلٍ ماديّ أو ذهنيّ تمارسه علينا.

ما من قارئ إلا ومارس لعبةَ البوتلاش بشكلٍ أو بآخر، وحده القارئ البليد سيحتفظ بجميع كتبه إلى النّهاية، إذ من الضروري أن تتخلّص من جزء من المكتبة عبر إهدائه أو حرقه أو الإلقاء به ببساطة. لكنّ أغلب عمليّات التّخلّص من الكتب تتمّ وفق طريقةٍ واعية، طريقةٍ توازن بينها، طريقةٍ تختارُ ما نتركه وما نحتفظ به، لهذا هي تبتعد كثيراً عن طقس البوتلاش، الذي يقوم جوهره على ترك أعزّ ما نملك.

على أنّ التّخلّص الأمثل من سطوة الكتب لا يمكن أن يمرّ لا عبر طقس البوتلاش (اختيار أعزّ كتبنا، والتّخلّص منها)، ولا عبر عملية فرز عقلانية تقصي من المكتبة ما يفيض عن حاجتنا وذائقتنا. إنّ المنهج الأمثل هو ذاك الذي يعرضه أورهان باموك في كتاب **ألوانٌ أخرى** : تخلّصٌ عشوائيٌّ لا منطقَ يحكمه إلا منطقُ إفراغ المكتبة. عقابٌ مثاليٌّ للمكتبة، لأنّها تآمرت، بحسب زعمه مع الزلزال. من الضروريّ أن يعاقب المرء مكتبته بين الفينة والأخرى، لأنّ في معاقبتها فقط يمكن أن يتحرّر من تاريخ بأكمله. المكتبة هي العالم الذي تتجلّى فيه دواخلنا، وإن لم يكن لدينا من سبيل لكنس جزءٍ من تفاهات هذه الدّواخل، يمكن ببساطة أن نصرف جهدنا إلى إعادة ترتيب المكتبة !

مكتبة بوينديا

سنواتٍ بعد وصول الهنديّة وأخيها حاملَين عظامَ أسلافهما في كيس، يجتاح بلدةَ ماكوندو طاعونُ الأرق. الأعراض : أرقٌ متواصلٌ، البلدة كلّها لا تنام، يختلط اللّيلُ بالنّهار، ثمّ يُفتقَد الإحساس بالزّمن شيئاً فشيئاً، يسحب النّسيانُ بساطه على الذكريات رويداً، وينتهي الأمر إلى انمحاء الذّاكرة تماماً.

ماكوندو طبعاً تمتلك رجلاً حصيفاً، رجلاً دائماً ينظرُ أبعد من الآخرين، خصوصاً وأنّه أعلى قامةً منهم، ذاك هو خوسيه أركاديو بوينديا.. في البدء لم يجد سكّان البلدة أيّ مشكلةٍ في أعراض طاعون الأرق، فعدم النّوم إطلاقاً يعني ساعات أكثر للعمل والاستمتاع بالحياة، وحتى فقدان الذّاكرة ليس بالمشكلة الكبيرة حقّاً. لكن المشكلة الفعلية هي في أن تفقد كلّ صلةٍ بالواقع، تتلاشى الذكريات من الذاكرة، ثمّ بعدها أسماء الأشياء وأخيراً الكلمات وما تشير إليه. طبعاً لم يقف خوزيه أركيديو بونديا، وهو الرّجل ذو الخيال الجامح، الشّهير بميوله إلى الابتكار والاختراع، قلتُ لم يقف مكتوفَ الأيدي أمام معضلة النّسيان، وإنّما ابتكر آلةً للذاكرة. آلةً للقراءة، يمكن اعتبارها مكتبةً من نوعٍ خاصٍّ جداً : كرسيٌّ وعجلةٌ دوّارة، ومقودٌ يتحكّم في دوران العجلة، وعلى العجلة ثُبّتت صوَرٌ تستعرض ذكريات الشخص كلّها التي يحتاجها لبدء يومه. يمرّرها سريعاً أمام عينَيه فيستعيد نظامَ يومه.

ثمّت تجسيدٌ فعليٌّ لما سعى إليه بوينديا : **آلة راماللي الذكية للقراءة** التي ذكرها المهندس الإيطاليّ في كتابٍ نشَره سنةَ 1588. آلة دوّارة شبيهة تمام الشّبه

بآلة خوسيه أركيديو بويندیا. آلة لم يكُن لها أيّ دورٍ يذكر في تاريخ القراءة الطّويل، اللّهم تذكيرنا بأنّ القراءة لم تنفصل يوماً عن فكرة الآلة.

تاريخٌ بأكمله من أدوات القراءة، كأنّ التّصفّح معضلةٌ. قد نفهم طبعاً آلاتٍ تسعى لترميم أو حفظ الحواس الضّرورية للقراءة، كالنّظارات بالنّسبة للعينين، وابتكار نظام قراءة وكتابةٍ كاملٍ لأولئك الذين عدموا الأعضاء الضرورية للقراءة، لكن لا أحد يستطيع تفسير هذا السّعي المجانيّ إلى ابتكار أدوات قراءة، كأنّما الكتاب وحده ليس كافياً !

لا ينطوي السّعي المحموم إلى ابتكار آلات القراءة على رغبةٍ في نشر الكتاب وتيسير الوصول إليه، بقدر ما ينطوي على همّ ربحيّ صرفٍ، إدخال القراءة بدورها إلى دورة رأس المال : كيف يُعقل أن يظلّ القرّاء خارج لعبة الاقتصاد الكونيّة، في حين أنّ عددهم المحترم كفيل بأن يشكّل مورداً ربحياً كبيرا ؟

ينبغي طبعاً أن نميّز بين المسعيَيْن القديم والحديث في ابتكار آلات القراءة. فالأوّل كان يتغيّى سيطرةً أمثلَ على الكتاب، تيسير تصفّحه وتقليبه وقراءته، خصوصاً إذا ما نحن أخذنا بميزان الاعتبار شكل وأحجام وأوزان الكتب القديمة، وهو مسعى وإن لم يَخفَ نُبلُ ادّعائه إلا أنّ حماقته ولا جدواه يظلاّن واضحَيْن؛ أمّا المسعى الثاني، فلا يروم التحكّم في الكتاب وإنّما تحويلَ جوهره نفسه، تغييره من مادةٍ إلى صورة، إلى وهم لا نلمسه ولا نحسّه، ولا نشعرُ بماديّته حتى وإن ظلّ قوامه الحروف والصّفحات.

ليس الكتاب (ونعني هنا الكتاب بما هو مادة قابلة للتصفّح اليدويّ) مرحلةً من مراحل تاريخ القراءة، إنّه هو القراءة نفسها، لحظة الاكتمال والتّجلي الأكمل، بحيث أنّ ما سبقه وما لحقه ينبغي أن يقاسا دوماً بالإحالة عليه. ففي الكتاب تتجلّى الخاصية الجسدية والفكرية البشرية الأعلى، خاصية اليد. إنّ اليد هي ما يفكّر، لأنّ لا تفكير فعليّ إلا عبر القراءة والكتابة الماديّتين، وحدها اليدُ قادرةٌ على ضمان العلاقة الجسدية الحميمة بالكتاب. ربّما من يقرؤون فعلاً هم العُميان الذين يلجؤون إلى طريقة برايل، أصابعهم تصير عيوناً، وتضطلع

بالمهمة المزدوجة، تقليب الصّفحات وقراءتها في آنٍ. لذا عوضاً عن التنافس في ابتكار آلات للقراءة، أما كان الأجدى تدريب القراء على أنماط مختلفة من القراءة، ما الذي يجعل برايل مثلاً حكراً على العميان وحدهم، ألن يكون من الممتع لنا أن نقرأ بأعين مغمضة أو في الظلام منتشين بملمس الحروف تحت أصابع أيدينا، أيدينا التي دونها تصير كلّ قراءة أو كتابة عملاً لا يعوّل عليه !

مكتبة أبو العبر

في بغداد زمن الخليفة المتوكّل (على الأرجح)، سيقرّرُ رجلٌ من بني هاشم، في عيد ميلاده الخمسين، أن يمحوَ سيرتَه الأولى، ويدشّن حياةً جديدةً تكلّفه التّصنيف ضمن حُمّاق بغداد ومجانينَها.

كنيتُه الذائعة في كتُب التّراث هي «أبو العبر» ـ ولنا عودةٌ إلى قضيّة الاسم ـ وأخباره كأخبار جلّ الحمقى والمغفّلين مزيجٌ من الجنون والحكمة، أمّا حياتُه (بعد الخمسين) فأقلّ ما يقال عنها إنّها حياةٌ سريالية. بيد أنّ ما يهمّنا في هذا المقام هو تجربتُه الكتابية الخاصّة، تجربة «المكتبة الحيّة».

كان أبو العبَر هذا يجلس على جسر حاملاً أدوات الكتابة، ويشرع في تدوين كلّ ما يتناهى إلى سمعِه من كلام الذاهبين والعائدين، وصيحات المكارين والملاّحين (التي أصلاً لا تنتمي إلى سجلّ الكلام اليوميّ المعتاد) حتّى تمتلئ صحيفته. النّتيجة بالطّبع معروفة سلفاً : كتابةٌ لا رابط منطقيّاً أو لُغويّاً بين جُمَلها وعباراتها. بيد أنّها كتابةٌ تحتفظ مع ذلك بسياقٍ عامٍّ يربط بين أجزائها، ما دام الفضاء الذي يحضن تجربة أبا العبر ظلّ فضاءً واحداً (الجسر)، والفاعلون يشتركون معا في فضاءٍ واحدٍ أوحد (فضاء الجسر، وفضاء بغداد الأعمّ)، ما يعني أنّ ثمّت مشتركاً واسعاً بين العبارات المنطوقة / المكتوبة (جلّها عبارة عن تحايا ما بين العابرين على الجسر، وإشارات لغوية ما بين المكارين والملاحين وصيحات باعة)، ويستتبع ذلك أنّ النّص سيظلّ متماسكاً بقدرٍ ما، وهو ما جرّبه كاتب هذه السّطور بنفسه، غير ما مرّة. وهذه المعضلة، معضلة التّماسك

الذي يطبع النصّ بدرجة ما، لن تغيب عن عقل الحمق الذي يتمتّع به صاحبنا؛ لهذا سيعمدُ إلى تمزيق صحيفته إلى أربع قطع، ثمّ رصف القطع بترتيب مخالفٍ، فينتج كلامٌ «ليس في الدّنيا أحمقَ منه !».

قد يكون أبو العبر بحقٍّ أبا التّجارب الكتابية التي صار الكتّابُ قروناً بعده يمارسونها تحت مسميّات تصنيفية (من قبيل الكتابة السريالية)، يمكن أن نذكر هنا تجارب الكتابة انطلاقاً من قصّ الجرائد وإعادة لزقها، أو إنتاج نصّ عبرَ رصف مقاطع من نصوص أخرى، أو حتّى كتابة نصّ واحدٍ بلغاتٍ عديدة. لكنّ الغالب على كلّ تلك التّجارب أنّها تسعى إلى إحداث المنطق عبر اللامنطق، بحيث قد يكون الشّكل غير منطقيّ تماماً لكنّه يُنتج مضموناً منطقياً. أمّا أبو العبر فقد وقف ضدّ كلّ شيء، ضدّ الشّكل والمضمون، وضدّ السياق. كان يسعى إلى أن تكون له لغته الخاصّة وكتابته الخاصّة ومنطق كلامه الخاصّ، والأهمّ من هذا كلّه أن يكون له سياقُ إنتاجٍ خاصّ يسمح له بتشييد مكتبةٍ خاصّة.

يمكن أن نحدّد مسارَ بناء سياق الإنتاج الخاصّ (مكتبة أبي العبر)، بمراحل أربع :

- مرحلة القطع مع السياق العام / السياق المشترك : تغيير الاسم من أبي العباس محمّد بن أحمد إلى أبي العبر، ولا ريب أنّ في تغيير الاسم دلالة على ولادة جديدة، ما دامت الولادة تقترن دائماً بالتّسمية، غيّر أبو العبر اسمه الأوّل، وقطع مع سيرته السّابقة محاولاً تدشين سياقٍ جديدٍ، سياقٍ يجُبُّ السياق السابق (سياقَ انخراطه في السياق العامّ)، وإمعاناً في الدّلالة على انتقاله إلى سياقٍ مختلفٍ، سياقٍ غير ثابتٍ لا يطمئنُّ ولا يركن إلى جاهز القول ومألوفه، سيجعلُ اسمه الجديد مفتوحاً لا يستقرّ، هكذا كان يضيفُ كلّ سنةٍ إلى اسمه حرفاً جديداً : سنة الولادة كان اسمه أبا العبر؛ والسنة التي تليها : أبا العبر ط؛ ثمّ أبا العبر طر؛ فأبا العبر طرو؛ وأبا العبر طروط... إلى أن مات واسمه : أبو العبر طرو طيك طنكندي بك بك بك.

- مرحلة بيان زيف السياق العام : يُروى أنّ الخليفة المتوكّل لمّا أُنبئ بحمق الرّجل وتصرفاته، سجنَه، ثمّ إذ واجهه الخليفة بجنونه قائلاً : «أنت مجنون»،

أجابه : «بل امتخطتُ حوتاً» كتحوير لكلام الخليفة «أنت مجّ (خلط وامتخط) نون (حوت)»؛ فأطلقه الخليفة قائلاً : «أظنّني في حبسك مأثوماً»، فردّ عليه مفكّكا كلامه مرّة أخرى : «بل ماء بصل (ماء ثوم)». تكشف مواجهة أبو العبر والخليفة قدرة الرّجل على بيان أنّ حتّى السياق العام الذي يقدّم نفسه باعتباره سياقاً منظّما ومنطقياً قد يتحوّل إلى سياقٍ غير مفهوم أو على الأقلّ سياقٍ ينطوي على دلالات أخرى مستهجنة، من هنا تكون تجربة الخروج عن السّياق التي انخرط فيها الرّجل مبرّرة.

- تجربة الكتابة المُخالِفة : وهي تجربة الجلوس على الجسر التي سبق أن بسطناها، والتي تقودنا إلى مكتبته الحيّة.

- إنشاء المكتبة الحيّة : أسّس أبو العبر ببغداد أوّل تجربة للمكتبة الحيّة. مكتبته عبارةٌ عن فضاءٍ مفتوح، يجمع فيه القرّاء (سيسمَّوْن في كتب التراث مُجّاناً)، جلوساً يشهدون تجربة الكتابة السريالية الحيّة، وكان هو يجلس على سلّم (دلالة أنّه ما بين السياقَيْن)، على رأسه خفٌّ وفي رجليه قلنسوَتان (إشارة إلى أنّ قيم هذه المكتبة مقلوبة !)، فيدوّنُ ما يمليه عليه مستملٍ؛ وهذا المستملي في جوفِ بئرٍ بالكاد يتناهى إلى أبو العبر ما يكتب، بل وإمعاناً في سوء الفهم، يجعل حول البئر ثلاثة رجالٍ يدقّون في هواوين حتّى تكثر الجلبَة، فيضطر المستملي إلى الصياح، ويختلط صياحه بدقّ الهاواوين وتلتقطُ الآذان أغرب الكلام، فتدوّنه الأيدي. وعلى الرّغم من أنّ مكتبة أبي العبر تقوم ضدّاً على القانون الأسمى في المكتبات (قانون الصّمت) إلا أنّ لها أيضاً مبادئ صارمةً وموانع يؤدّي خرقها إلى أشدّ العقوبات إهانةً. القاعدة الأساسية في مكتبة أبي العبر هي : عدم الضّحك. من يضحك يصبّ على رأسه ماءٌ قذر من جفنة، إن كان من الوضعاء، أمّا إن كان من كرام القوم فيقطّر عليه الماء بواسطة قصبة. ونفهم جيداً سبب منع الضّحك، أنْ تضحك في حضرة مكتبة أبي العبر، هو إقرارٌ مباشرٌ بأنّها تنتمي إلى سجلّ الهزل، أنّها قابلة لأن تصير موضوعاً للضّحك والتّندر، بل هو إقرار صريح بعدم كفاءتها «كمكتبة»، وهذا ما لا يمكن أن يقبله بأيّ حالٍ قيّمُ مكتبة، مهما كان فضاؤها سريالياً !

كان يعرض لي أحياناً أن أجلس إلى حاسوبي (الجسر) وأحركّ صفحة الفايسبوك أو تويتر صعوداً ونزولاً، متابعاً كلاماً لا رابط بينه، ولا شيء يجمع بينه سوى الفضاء المشترك المسمى الفايسبوك، كلاماً أشبه ما يكون بكلام العابرين على الجسر، ومن حين إلى آخر تنبعث من جنبات الصفحة دعوات المستشهرين، كأنّها أصوات الملاّحين والباعة عارضي البضائع المختلفة. جرّبت تقريباً على الواقع الافتراضيّ، كلّ الأمور التي قام بها أبو العبر، ولأنّي كنت أنتهي كلّ مرّة إلى الضّحك كان يتمّ حظر حسابي، حتّى انتهى بيَ المطاف إلى إغلاق صفحتي تماماً، والآن صرت أكتفي فقط بالوقوف على الجسر !

مكتبة شوبنهاور

لا تفتح الكتب ! لا توقظ الموتى !

حسابياً، يفترض المنطقُ (في حدود التّصوّر الذي نبسطه هنا) أن يكون عدد الأموات مساوياً لعدد الكتب؛ والمؤلّفون الذين خلّفوا عديد الأعمال، هم مؤلّفون ماتوا عديد المرّات، ماتوا ميتات يساوي عددها عدد ما خلّفوه من كتب : أرواحهم بعدد كتبهم؛ وحتّى الأحياء من الكُتّاب قد خسروا من أرواحهم عدد ما ألّفوه من كتب، ولم يتبقَ لهم من أرواحٍ إلا ما يساوي عدد ما سيؤلّفونه فيما بعد من كتب !

ربّما يكون شوبنهاور هو من نبّه إلى القرابة المتينة بين المكتبة والمقبرة، بحيث إنّ القراءة عنده تدريبٌ طويلٌ على فنّ التّعامل مع الموتى، أن تقرأ معناه أن تدخل في حوارٍ مباشرٍ مع ميّت، ما يستتبعُ بالضرورة أنّك تمنحه إمكان أن يُطلَّ على عالمِ الأحياء، لا بل تمنحه صوتاً للتعبير في عالمنا، لهذا تظلّ، ما تبقى من حياتك، تحملُ تبعات الميّت الذي أحييتَه.

هكذا يكون تمرير اليد على رفوف المكتبة أشبه ما يكون بالسياحة بين الأجداث، حيث نُحاذر أن نطأ الموتى، في طريقنا إلى القبر الذي نقصدُه. وبالطّبع تلعبُ هندسة المقبرة / المكتبة دوراً مهمّاً في مدى إصابتنا للميت / الكتاب الذي نقصده مباشرة ! فأثناء مسار القراءة يلتصق بنا بعض الموتى من حيث لا ندري، وأحيانا يكون الميت قد عقد صداقاتٍ مع ميّتين آخرين، وصار من المتعذّر زيارته دون أن نزور معه في الآن نفسه غيره من الموتى، تماماً

كالكتب التي تستدمج بداخلها عديد الكتب الأخرى، فلا يصير بالإمكان قراءتها منفردةً ولا سماع صوتها خالصاً. بالطّبع ليس هذا الأمر مشكلةً، لا بل قد يعتبره البعض حظاً وميزة تحسب للكتاب. لكن الإشكال يطرح أساساً مع الكتب التي نقرؤها خطأً، الكتب التي كان من الأفضل أن لا نقرأها، أولئك الموتى الذين يثقلون كاهل الأحياء!

إنّ فنّ القراءة في الواقع هو فنّ اللا قراءة، هو أساسا فنّ أن نميّز من لا ينبغي أن نقرأهم، من لا ينبغي أن نوقظهم بين الموتى.. عملية القراءة أشبه ما تكون بلعبة الشطرنج، حيث أنّ النقلات التي لم نقم بها لا تقلّ أهمية عن تلك التي قمنا بها، بل لعلّها أساسا ما يحدّد اللّعب. فالقراءة تعود في نهاية المطاف إلى عملية تدبير الفراغ والامتلاء، نقرأ لنمتلئ، لكن ينبغي أن نحتفظ لأنفسنا بقدرٍ معيّن من الفراغ، ذاك الفراغ الذي من دونه تغدو كلّ قراءة أو كتابة عمليّةً لا معنى لها. ليس المقصود هنا امتلاءً بالمعنى الكميّ، إذ لا يحسب الأمر بعدد الكتب التي قرأناها، وإنّما يحسمه اختيارنا أساساً، ذاك الاختيار الذي يظلّ رهن الصدفة والبصيرة. إنّ كتاباً واحداً لقادرٌ بمفرده على أن يطمس كلّ مساحةٍ ممكنة، على أن يملأنا حدّ تعذّر قراءة أيّ كتابٍ آخر بعده؛ وبالمقابل قد يملك كتابٌ آخر فضيلةَ أن يُفرغنا، فضيلة أن يمنحنا مساحاتِ فراغٍ أخرى؛ والاستثناء السّعيدُ يكمن في كتابٍ يقلب المقبرة بأكملها، يدمّرها بأكملها، بحيث يغدو كلّ ما قبلَه محواً.

ثمت موتى من الأفضل إقبارهم للأبد، وثمّت موتى ينتظرون من ينفض عنهم الغبار، وثمت بالمقابل موتى لا يمكن أن تسمح لهم بأقلّ من جولةٍ عابرة في عالم الأحياء: لحظة قصيرة فقط يتنفّسون فيها الهواء خارج القبر، هي نفسها اللحظة الكافية لتصفح كتابٍ، لا ينظر فيه قارئ سوى مرّة كلّ عقدٍ من الزمن.

عملياً يستطيع القيّم على المكتبة أن يحسب الوتيرة التي يغادر فيها الميت قبره، إذ هناك من الكتب ما لا يستعيره قارئٌ إلا مرّةً كلّ سنواتٍ، ومنها بالمقابل ما لا يكاد يعيده قارئ حتّى يستعيره قارئ آخر (موتى لا يستريحون أبداً)، وهناك أيضاً كتبٌ لم تُستعر يوماً، موتى مذ دفنوا لم يزرهم أحد!

المشكلة الفعلية هي إذا أخرجت ميّتاً ولم تستطع أن تعيده إلى قبره. سيكون عليك تحمّل رفقته طيلة حياتك، سيزاحمك في بيتك، وسيمنعك من زيارة أيّ ميتٍ سواه، يسطو على تفكيرك شيئاً فشيئاً حتّى لا يغدو بإمكانك التفكير إلا عبره، كأنّك لم تقرأ ولم تعرف سواه ! لكن بالإمكان أيضاً أن يصير الكتابُ / الميت هو الضّحية، تُخرجه من قبره، يسير معك فترةً من الزّمن ثمّ ما يلبث أن يصير غريباً لا مكانَ له في عالم الأحياء، تماماً مثل الميت الذي عاد في قصّة دينو بوزاتي، فضاق به أهله وأصدقاؤه وبيته، فلم يكن له إلا العودة إلى قبره. المشكلة الأعقد هي إن لم يعرف طريق العودة إلى المقبرة، إذ ظلّ معلّقاً بين العالمين، لا هوَ هنا ولا هو هناك !

مكتبة ستاندال

لا مشكلة شخصيّة لديهم مع الكتب. هم فقط لا يقدّرونها. لا يرون فيها ما يراه القرّاء والكتّاب والمثقفون، وحين يسمعون أحدهم يرطن بعبارات ضخمة مهولة من قبيل : «إنّ الكتب هي من سينقذ العالم» أو «القرّاء هم مستقبل البشرية» أو «لا يمكن لقارئ أن يصير إرهابياً»، يتملّكهم العجب، ولا تستطيع آليات تفكيرهم الذهنية والمنطقية تدبّر هذا الكلام. لا يعادون الكتاب لذاته، لا بل قد يدعمون نشره وتداوله، إن طُلب منهم ذلك وآنسوا فيه فائدةً دعائية أو سياسية، لكنّ ما يقضّ مضجعهم حقاً هو المكتبات : بنايات غبيّةٌ لا فائدةَ منها سوى ركن أكداسٍ من الكتب التي لا تصلح لشيء فعليّ. مئات الكيلومترات المربّعة من المساحات في مواقع إستراتيجية تضيع هباءً، في حين كان من الممكن استغلالها في مشاريع عقارية تدرّ الملايير !

لن نتجادل في حقيقة أنّ عدد المكتبات التي يتمّ إغلاقها سنوياً يفوق أضعافاً مضعّفة تلك التي يتمّ تدشينها. في كلّ مرّة يتمّ فيها تدشين مكتبة، فتشحذُ كاميرات الإعلام، ويحضر السيّاسيون وتُطلق الشعارات، تُغلق مكتبات أخرى عديدة، ويمرّ إغلاقها في سريّة وصمتٍ تامّين : السّاحر على المسرح يجعل العيون تتعلّق بالحمامة ويخفي، أثناء ذلك، الفيلَ.

اختفاء المكتبات قد يجرّ أموراً خطيرة على حيوات بعض البشر، ممّن اعتادوا التردّد إليها من حين إلى آخر، فجأةً سيَلْفون أنفسهم قد فقدوا محطّة مهمّة من محطّات سيرهم اليوميّ، بعضهم سيغيّر مساره اليوميّ مستبدلاً المقهى بالمكتبة،

وبعضهم الآخر قد يفضّل المكوث في بيته، لكنّ العديدين سيتيهون هائمين في الأرض بعدما فقدوا البوصلة التي كانت تضبط إيقاع خطوهم على الأرض.

أمّا أكبر المتضرّرين من إغلاق المكتبات فهُم (واستعمال ضمير العاقل هنا مقصود) الكتب. آلاف الكتب التي تجد نفسها فجأةً غريبةً في بيتها بعدما صدر قرار تحويله من مكتبةٍ إلى مبنى عقاري أو سياحي أو مركّب أعمالٍ أو محلّ لبيع الشاورما والسندوتشات. فجأة يتمّ تسليم الكتب إلى شخصٍ غريبٍ يشتريها بالجملة وقد يبيعها بالكيلوغرام بعدما كانت قيمتُها لا تُحدّد بالاعتبارات السلعية المتداولة. يُنفّذ قرار الإفراغ وتُطرد الكتب إلى الشّارع. بعضها ينتهي به المطافُ مؤقّتاً في رفوف مكتبةٍ أخرى، إلى أن تطالها هي نفسها سُنّة التقويض ويحكم على سكّانها بالإفراغ؛ أمّا بعضها الآخر فيخرج من المكتبة نهائياً... تتناقص المكتبات إلى أن تنتهيَ تماماً وتخفي من عالمنا، ولا يظلّ ثمّت غير مكتباتٍ شخصيّة لا يعينا أمرها في هذا المقام.

سيستمرّ تدشين المكتبات بالقدر الذي يستمرّ فيه وجود الرّومانسيّين المدافعين عن حقّ الجميع في القراءة، والسياسيّين الذين يرون فيها دعاية جيّدة لهم، لكنّ اختلال التوازن بين عدد المكتبات التي تدشّن وتلك التي تغلق سرعان ما سيغدو بيّناً. ويتحوّل موضع صغيرٌ في زاوية محشورة من زوايا مكتبةٍ عموميّة إلى حلمٍ بعيد المنال بالنّسبة لأيّ كتابٍ. ستتضاعف أعداد العناوين التي يتمّ إقصاؤها سنوياً، ويبدو الأمر ظاهرياً كأنّه سباقٌ محمومٌ بين الكتب حول أحقيّة كلّ واحدٍ منها في أن يقتطع لنفسه مكاناً في المكتبة العمومية المشتركة التي يُعتقد أنّها تحفظ للبشر صفوة من أنتجوه من مؤلّفات. أستعمل كلمة «ظاهرياً» وفعل «يُعتقد» لأنّ لا معيارَ واضح لعملية الفرز التي تجعل بعض الكتب يظلّ محتفظاً بموضعه في المكتبة، بينما يلقى بالبقيّة إلى الشّارع؛ ليس ثمّت أصلاً أيّ انتخابٍ أو فرز، العمليةُ كلّها عشوائية، فالكتب التي يلقى بها أوّلاً هي الكتب التي طالتها أيدي الزمن وتدهورت صحّتها «الماديّة»، ثمّ ما يلبث الأمر أن ينتقل إلى إقصاء عشوائيّ يلقي إلى الشّارع بأوّل ما تطاله اليد : كلّما كان الكتاب يحتلُ موقعاً بعيداً ومنعزلاً من المكتبة، أمهلته الكارثة فسحة مضافةً من العيش.

لن يوازي حسرةَ الكتب التي يلقى بها خارج مساكنها سوى حسرة الرّومانسيّين المدافعين عن المكتبات العمومية، ستظلّ أصواتُ عويلهم تعلو متباكية على ضياع أنبل مشروعٍ بلغه ذكاء بني البشر، وعلى الاستئصال الممنهج لذاكرتنا الجمعية.. القلّة فقط سيدركون أنّ خلف كلّ ما يجري حكمة قديمة، ترى أنّ هدم المكتبات هو الخير الأعظم للكتب. الأعمال العظيمة لا خوفَ عليها، تعبر من زمن إلى آخر دون حاجة إلى مكتبة تحفظها، حتّى لو انعدمت المكتبات، حتّى لو لم يكن ثمّت من وسيلةٍ للطّبع والنّسخ، حتّى لو اختفى نظامُ الكتابة نفسه، ستظلّ الأعمال العظيمة تنتقل في الكلمات الشفاهية والأحلام والمصافحات العابرة... فالمكتبات كما قال ستاندال : «لا تصلح إلا ملاذاً للكتب الرّديئة، تلك الكتب التي لولا المكتبة لاختفت إلى الأبد ! »

مكتبة بنعبد العالي

لا يمكن أن تقترض منه كتاباً لأنّه لا يملكه أصلاً. لا مكتبةَ ببيته. أو ربّما مكتبتُه سريّةٌ لا تظهر. لا مكتبة ولا كتاب. أمرٌ محيّرٌ ومربكٌ خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المساحة الشّاسعة التي يغطّيها المقروء في كتاباته !

لا علم لي فيما إذا كان قد سبق لفرويد (أو أحد أتباعه) أن درس العلاقة بالمكتبة الشّخصية، لكنّ مقاربتها من حيث الإظهار والإخفاء تبدو لي مدخلاً ممكناً من المداخل التي كان بإمكان المحلّل النّفسي سلوكها. يمكن التمييز عموماً ضمن أصحاب المكتبات ما بين أصحاب النّزوع الشّخصيّ إلى إظهار المكتبة، عرضها في أبرز مكانٍ من البيت، كأنّما هي الواجهة التي يرغب صاحبُها أن يُنظر منها إليه؛ وعلى خلاف هؤلاء المستعرضين ثمّت أولئك الذين يحرصون على مكتباتهم، ولا يبدون من مكتبتهم «إلا ما ظهر»، بحيث عبثاً يحاول الزائر كشف ركنها بالبيت، فيستسلم إلى فكرة أنّها ستكون بالضّرورة في المكتب (مكانها الأمثل)، المكتب الذي قد يكون منفصلاً عن محلّ الإقامة. على أنّ تقصياً أعمق قد ينتهي إلى الإقرار بعدم امتلاك هؤلاء مكتبةً بالأصل !

ليس إبراز المكتبة أو إخفاؤها مجرّد اختيار شخصيّ، ينظّم العلاقة بالزوّار والمتطفّلين على المكتبة، وإنّما هو نمطٌ كاملٌ من العلاقات التي يبني عبرها صاحبُ المكتبة تصوّره لفعالية القراءة والكتابة نفسها. إظهار المكتبة والمبالغة في إبراز مكوّناتها قد ينطوي على سعي خاصّ إلى إظهار المقروء، جعله يطفو على السّطح، عرضه مكشوفاً أمام القراء، وهو ما لا يني الكاتب يبرزه في حواراته

وكلامه وإحالاته الدّائمة، ويعبّر عنه في صيَغ من قبيل : (أنا سليلُ كافكا / أحاول ما أمكنني استثمار نتائج المنطق الصوري في الكتابة السردية / أفضّل القراءة على الكتابة ومقروئي شعريّ بالدّرجة الأولى...إلخ). على خلاف ذلك قد يعكس إخفاء المكتبة تصوّراً معاكساً عن فعالية القراءة والكتابة، تصوّرا يحاول ما أمكن إتلاف الخرائط وتجنّب التّصريح بالممتلكات.

وعلى هذا المنوال يمكن تصوّر نظامٍ متعارضٍ متوازٍ بأكمله بين مبرز المكتبة ومخفيها : مُبْرِز المكتبة يُكثر من القبسات، بينما لا تظهر القبسات في نصّ مُخْفِي المكتبة إلاّ كقطّاع الطّرق (والتّعبير لفالتر بنيامين)؛ لا يمكن لمبرز المكتبة أن يتحدّث أو يكتب ثلاثة أسطر دون أن يستشهد باسمٍ من الأسماء الرّنّانة، بينما قلّما يستشهد مخفي المكتبة باسم من الأسماء، وحتّى حين يورد الأسماء فإنّه يخلط بينها (عمداً أو لامبالاةً)، وينسبُ أقوال هذا إلى ذاك. مُبرز المكتبة يحبّ أن يُلبس نصَّه على النّمط الرّسميّ المضبوط (ربطة العنق والحذاء الملّمع لا نقاش فيهما)، بينما يُلبس مخفي المكتبة نصّه حاشداً كلّ الأناقة الكامنة في الإهمال : نصّ الأوّل حواشيه مضبوطة بالمسطرة، بينما حواشي الثاني (خاصّة الإحالات) هي الجهد الذي يبذله مرغماً حين لا يكون من إمكانٍ لتجنّبه !

يتوافق هذا الإخفاء المتعمَّد للمكتبة مع تصوّر بنعبد العالي لفعالية القراءة والكتابة. فهو إن كان يحرص كلّ الحرص على حجب مكتبته، وأيّ زيارة إلى بيته مهما طالت لن تفيد في اصطياد أيّ كتابٍ، فإنّ هذا الإخفاء يعبّر عن نفسه في كلّ مناحي فعالية الكتابة والقراءة كما يمارسها. لا يمكن للمقروء عند عبد العالي أن يظهر في شكل قطع وإحالات واستشهادات، وإنّما المقروء هو ما لا ينفكّ ينمحي في فعل الكتابة. الكتابةُ سعيٌ دؤوب إلى محو ما نقرؤه. على أنّه محوٌ لا يقتل وإنّما يمنح جرعةَ حياةٍ مُختلفة. نصٌّ يُستشهد به هو نصٌّ ميّتٌ، نصّ يتمّ استدعاؤه كجثّةٍ، بينما نصٌّ يسري في عروق النّص دون أن يُصرَّح به، هو نصّ ينبض بالحياة !

الكتابة فعل إخفاء، يختفي المقروء لينكشف عبر اختفائه. كان نيتشه قد عبّر تعبيراً أصيلاً عن هذه الوضعية حين قال إنّ بعض المفكّرين فشلوا في أن يكونوا

أصيلين فقط بسبب تمتّعهم بذاكرةٍ قويّة ! ليس المقصود هنا الذّاكرة بما هي ملكة التذّكر، وإنّما المقصود فعالية قرائية وكتابية خاصّة، تنتفي فيها كلّ بلادة الترديد، فعالية تنهض ضدّ غباء الكتابة الثقيلة، كتابة الصناديق المرصوصة. وهو تقريباً الدّرس الأكبر المستفاد من تجربة عبد السّلام بنعبد العالي في الكتابة الخفيفة التي دأب على الانتصار لها منذ عقود. حتى رسالته الجامعية بالكاد فرض على نفسه ضرورة التقيّد ببعض الضوابط التي تنتمي إلى سجلّ البلاهة : الحواشي والإحالات، ولحظة نشرها حاول ما أمكن التّحايل كي لا تبرز مكتبته فيها. يفخرُ بعضهم برسالات جامعة وبحوث تفوق فيها صفحات ثبت المراجع صفحات البحث نفسه، بينما من نزر قليل من المراجع والقراءات المشار إليها تنهض الكتابات العظيمة، تلك الكتابات التي قوامها : مكتبةٌ لا تظهر وكتب لا يمكن الاهتداء إليها !

مكتبة دريدا

والفراغات بين الكُتب، لمَ تصلُح ؟

المكتبة تخشى الفراغ، حتى وإن كان صاحبها يحتاج مساحةً دائمةً لما هو قادمٌ من كُتبٍ. تدبير الفراغ في المكتبة أعقد وأصعب من تدبير الامتلاء. ذاك أنّ رصف الكتبِ مزدحمةً، بل وحتّى وضعها بشكلٍ عشوائيٍ مكدّسة فوق بعض، لا يقلقُ العينَ بقدر ما يقلقها الفراغ الذي يفصلُ ما بين كُتابين. الكتب بالنّسبة للمكتبة أشبه بالأسنان بالنّسبة للفم : ازدحامُها تعَبٌ، لكن شساعةَ الفجوات بينها بشاعةٌ. كِبرُ المكتبة وعظمها وكثرةُ عناوينها، لا تُقاس بعدد الكتب، وإنّما بنسبةِ الكتب على المساحة. ما يعني من زاوية أخرى : قلّة الفراغات.

قد نفهم ممّا سبقَ النّزوعَ الدّائم إلى ملء رفوف المكتبة بأيّ شيءٍ كانَ، حين تعوز الكتبُ. كلّ مساحة فاصلة ما بين كتابين إلاّ وتستنجد بما يَستُر عورتها (الفراغُ عورة المكتبة). في كلّ مكتبةٍ زوائدُ وملاحق لا تؤدّي وظيفةً جمالية، بقدر ما تحفظ التّوازن، وتدبّر العلاقة ما بين الفراغ والامتلاء : تمثالُ برونزيٌ أو مزهريّة أو ساعةٌ قديمةٌ أو فكّاك براغي، أو أيّ شيء مهما بدا تافهاً أو قليل المعنى... المهم أن يتمّ وضعه وفق عمليّة مضبوطة ترتهن لمنطقٍ وحساباتٍ دقيقة تضطلع بها العين : عمليّة تحسب المسافات وتقدّر الفراغ ....

كان جاك دريدا أحد الذين أولوا عنايةً خاصّة جداً بملاحق المكتبة، بتلك الأشياء التي قد تبدو في سياقٍ آخر منفصلة تمام الانفصال عن عالم الكتابة والقراءة.

وكان يولي اهتماماً خاصّاً بأدوات الكتابة (الأقلام وآلات الكتابة) راسماً تاريخاً شخصياً لعلاقته بهذا الفعل المعقّد : فعل الكتابة. تقريباً يمكن القول إنّه بالنسبة للفيلسوف الفرنسيّ لم يكن المنتوج أجلّ وأكثر قيمةً من الأداة التي أنتجته. لهذا احتفظ دريدا بكلّ ما استطاع أن يحفظه من أدوات الكتابة، منخرطاً بذلك في بناء متحفه الشخصيّ.

لا يقلّ المتحف الشخصيّ أهميّة عن الأرشيف الشخصيّ. ما تتمّ إثارته عادةً، والدّعوة إلى الاعتناء به هو أرشيف المؤلّف، أي ما خلّفه من آثار فنيّة وكتابات. بحيث يبدي من خلّفهم وراءَه تلهّفاً على إلحاق ما فضُل من أعمال (حتّى وإن لم تكن مُكتملةً) بركب سابقاتها. وهو سعيٌ يتمُّ في الغالب الأعمّ دون منطقٍ ودون وعيٍ بأنّ ما يُنشر من الأرشيف يدشّن دورةً كتابيّة أخرى غير تلك التي كان المرحوم منخرطاً فيها قيد حياتِه، (دورة الكتابة من القبر بحسب تعبير عبد السّلام بنعبد العالي). ويهمل تماماً جرد متعلّقات المكتبة، تلك التي اعتنى بها صاحب المكتبة قدر عنايته بالكتب.

ملاحق المكتبة، الزوائد على الكتب، لا تدخلُ في تضادٍ مع الكُتب، وإنّما هي تكمّلها، وتمنحها بلاغة خاصّة. أكتب هذا وأنا أتأمّل تمثال الدرويش الموضوع بين مجلّدات المثنويّ لجلال الدّين الرّوميّ، والذي يبهج زواري أكثر من منظر المجلّدات حتّى أنّ بعضهم يطلب مني إعارته المجلّدات ومعها التمثال الذي لم يعُد بالإمكان فصله عنها.

من السّهل أن نفهم شغف دريدا بملاحق المكتبة، وبالفراغات بين الكتب، إنّه نوعٌ من التّجليّ الظاهريّ لممارسته النّصيّة والأسلوبية، فقد كان الفيلسوف الفرنسيّ مهتماً كثيراً بما تنطوي عليه النّصوص من فراغات، بل إنّ مسعاه المعرفيّ في جزء كبيرٍ منه كان يقوم على إبراز الفراغات التي تنطوي عليها النّصوص، تلك الفراغات التي تسمح بتركيبِ نصٍّ على نصّ آخرَ بعيدٍ تمام البعد عنه، وعلى إظهار الطّاقة التّأويلية الهائلة المتضمّنة في الفراغات، الفراغ مساحةٌ تحرّك التّأويل، وتحفّز الخيال، في حين أنّ الامتلاء يقتلُ كلّ سبيلٍ للإبداع. ومن جهةٍ أخرى كان دريدا مولعاً بتلك الزوائد النّصيّة، التي لطالما

انصرف عنها الدّارسون. كان يرى في الحواشي والملاحق وأدوات الرّبط بين الكلمات طاقةٍ إبداعية تفوق بكثيرٍ ما تنطوي عليه الأفكار الكبرى التي يُحتفى بها عادةً. على هذا المنوال تشكّل التّشبيهات في نصوص ماركس (وهو ما بيّنه جليّاً فيلسوفنا الفرنسيّ) ذخيرةً تأويلية وإبداعية وفكرية تفوق بكثيرٍ المضمون الفكري والأيديولوجي الذي ظلّ يستعيده كلّ قراء ماركس وشارحيه.

وعلى قدر ما تكون المكتبة تناسباً مل بين الفراغ والامتلاء، تكون القراءة فنّ تدبير الفراغ، أن تقرأ معناه أن تعرف كيف تتعامل مع الفراغ، لا نقرأ لنمتلئ، ولا حتّى لنُفرغ أنفسنا، وإنّما لندبّر العلاقة الجدلية ما بين الفراغ والامتلاء فينا. لهذا فإنّ قارئاً نبيهاً عليه أن يبدأ من تدبير فراغ مكتبته، ما دامت المكتبة هي الانعكاس الخارجيّ لأذهاننا. مكتبةٌ مليئةٌ بالكتب هي مكتبةٌ ميّتة، ومكتبةٌ لا كتابَ فيها هي مكتبةٌ لم تولد بعد. وبينهما المكتبة الحيّة، التي تُراوح ما بين الموت وإمكان العودة إلى ما قبل الحياة !

مكتبة غاليفر

كان يعِده بأنّه سيرتاح الليلةَ من وعثاء السّفر، كما يليق بزائرٍ عزيز، يُكرم ويُكرم حصانه، وغداً حينما يستيقظ سيغادر مع أولى أشعة الشمس. يعده بهذا الأمر كلّ ليلة. لكنه كلّ صباح يستيقظ كأنّما وصل تواً. به تعب المسافر، ورغبة جامحة في أن يستريح ويريح حصانه، ليغادر صباحاً مع أولى أشعّة الشّمس، لكنّه...

دائرة مغلقة تلك التي وضع المسافرُ فيها نفسه حين قبل ضيافة الرّجل الغريب. إذ كان الغريب (غريب الهيئة لا الأرض) يضع له مادة مخدّرة في الشراب، ويقوده أمام المرآة، وهناك يجرحه جرحاً صغيراً في إبهامه؛ جرحاً سريع النسيان، سريع الانمحاء، جرحاً بلا ذاكرة لكنّه يفتح بوابة الذاكرة على مصراعيها. كان يضع الإبهام الجريح على المرآة، فيحنّ دمٌ منسي في الماضي للدّم النازف في الحاضر، هكذا ينبثق من المرآة السّلف الذي تناديه رائحته في دم السلالة.

تلك إحدى أجمل التخيلات الأدبية على الإطلاق عن علاقتنا بالتاريخ، فالمضيف الذي حبس غاليفر (في الصيغة السينمائية الموقعة من طرف شارل ستوريدج)، في دائرة مغلقة، كان يستثمره في استجلاب القدامى. كلّ السلالات الغابرة التي تقاطعت مع غاليفر وخالطته الدماء، ذات زمنٍ، إلا وتترك أثرها في خريطته الدمائية، وبالإمكان استدعاؤها، عبر بوابة المرآة السحرية للمثول، والتعبير عن ذاتها. لقد كان منهج المُضيفِ التاريخيُّ قائماً على أُسَّين اثنَين : فأولاً،

لا شيء يُنسى وكلّ شيء يحفظ في سجلّ الدم؛ وثانياً لا حقيقةَ ممكنة سوى ما نسمعه من أفواه المعنيِّين بها أنفسهم.

بعدالةٍ إذن أخذَ المضيفُ من المعلّم (سقراط) والتّلميذ (أفلاطون)؛ فلا ريب في أنّ ثمّت الكثير من التّعالق ما بين تصوّره للوقائع التّاريخية وتصوّر أفلاطون للحقيقة. ذاك التّصور الذي يجعل من المعرفة تذكّراً ومن الجهل نسياناً. ليست المعرفة سوى تجلّي ما سُطّرَ مُسبقاً، ليست سوى استذكار الحقيقة الثّابتة الأزلية؛ وغير خفيّ أنّ من أهم دوافع سقراط إلى عدم الكتابة إيمانه بأنّ لا حقيقة خارج المنطوق، ولا قيمة للمنطوق إلا لحظة النّطق به. كلّ حقيقة تُسمع من فم صاحبها. الكتابة ليست حفظاً بقدر ما هي تدمير، ومعلّمو البشرية الكبار (سقراط والمسيح والنّبيّ محمّد وبوذا) لم يكتبوا حرفاً، نطقوا الحقائق وتركوا للآخرين أمرَ تدوين الأكاذيب.

القراءة فعل استدعاء الأسلاف، صعود إلى التاريخ الشخصيّ. من يقرأ يعيد رسم طريقَين - على الأقلّ - صوبَ أسلافِه : طريقٌ قصيرة واضحة المعالم (بدرجةٍ أو بأخرى)، وهي طريق مكتبته القرائية الشّخصية، حيث ينتظم تاريخ مقروئه الشّخصيّ، انتظاماً لا يعتمد قانون التتالي والترابط وإنّما قانون الشّدة والخفوت، بحيث أنّ ما يُحدِّد موقعَ الكتاب وأهميّته ليس زمن قراءته وموقعه بالنّسبة إلى باقي الكتب، وإنّما القوّة التي يضيء بها في لحظةٍ ما، لحظة تجلّيه في كتاب آخر، الأمثلة البسيطة على ما سبق هي طوع الذّهن (نصّ **موبي ديك** لهرمان ميلفيل قد يتجلّى في مرآة **العجوز والبحر** لهمنجواي أو **حين تركنا الجسر** لعبد الرحمن منيف). أمّا الطّريق الثّانية، وهي قطعاً أخطر الطّريقين وأشدّهما أهميّة، فهي الطريق التي تُرصف من جُماع لبنات كلّ كتب العالم. هي الطريق التي تمكّننا لحظة قراءة كتابٍ واحدٍ من استعادة جميع ما كُتبَ وكلّ ما قيل من كتبٍ وكلمات عبر تاريخنا البشريّ المشترك.

يرى بعض النّقاد أنّ كلّ ما قيل من شعر إلى يومنا هذا، ما هو سوى تنويع على قصيدة واحدة هي بمثابة الأصل لكلّ ما عداها؛ وما يزالُ الأفلاطونيّون (سواء الواعون منهم بانتمائهم إلى صاحب الأكاديميّة أو المنتمون إليها دون

وعي) يدافعون عن فكرة أنّ المعرفة تذكّر وأنّ الجهل نسيان، ما يمكن أن يؤوّل أيضاً بأنّ كلّ شيء مطبوع سلفاً في النّفس وما المعرفة سوى استعادة ما نمتلكه أصلاً؛ ويؤوّل بعضُهم يقين فيتاغورس المطلق في أنّه قد عاش حيوات أخرى كثيرة قبل حياته تحت اسم «فيتاغورس» إلى كون تلك الحيوات ما هي سوى الكتب التي قرأها مباشرة أو عبر كُتب أخرى غيرها. بيد أنّ الدليلَ الدّامغ على صحة مسعى غريبِ غاليفر، والحجّةَ البيّنة على إمكان تبنّي طريقته، لا نُلفيهما في الكُتب والتّاريخ، وإنّما في علم الجينوم. لقد صار من البديهي اليوم أنّ كلاً منّا هو جُماع أسلافه كلّهم، ما يعني أنّ كلّ شيء مسجّل في الخريطة الجينية، كلّ الخبرات البيولوجية التي راكمها الأسلاف عبرَ تاريخهم الطّويل، تعيد تجسيد نفسها في كلّ لحظةٍ زمنيةٍ مضيفةً إليها ما يجدُّ. وليس الأمرُ مجرّد تجذيفِ خيالٍ، إذ ثمّت من الأمثلة التاريخية ما يعضّد الفكرة ويمنحها واقعيّةً: اكتشف داروين متأخّراً أنّ جدَّه قد كتبَ أنّ ذوات الدّم الحار من الحيوانات، ذات أصل مشترك، ما يؤكّد أنّ المسألة تجري في دم آل داروين!

يقودنا ما سبق إلى التّفكير في إمكان أن نبتكر مستقبلاً وسيلة تمكّن كلاًّ منّا من أن يستحضر متى شاءَ أيّ كتابٍ كُتبَ طيلةَ تاريخنا المشترك الطّويل، دون حاجةٍ إلى أيّ مكتبةٍ أو كتاب، إذ نحن أنفسنا سنغدو المكتبات. المسألة المزعجة هنا هي كيف سنميّز آنذاك القرّاء. لا ريب في أنّ القراء قد سعوا عبر تاريخهم الطّويل إلى أن يشكّلوا نسيجاً مختلفاً غريباً عن باقي فئات المجتمع. أن نقرّ إذن بإمكان أن نتحوّل جميعاً إلى مكتباتٍ هو إقرارٌ ضمنيّ بإمكان اختفاء القرّاء!

أحسب أنّه حتّى في حال بلغنا مستقبلاً هذا الإمكان، فإنّ القرّاء سيظلّون كما كانوا دوماً جنساً غريباً وأقليّة، ذاك أنّه حتّى لو صرنا جميعاً مكتبات مفترضة فهذا لا يعني أنّنا سنمنح أنفسنا وقتاً للتنقيب بين رفوفنا وقراءة ما نختزنه من كتب، ثمّت من سيمرّ في هذا العالم دون أن يفكّر ولا مرّة واحدةً في قراءة نفسه، دون أن يكلّف نفسه عناء تقليب رفوفه وتصفّح ما تختزنه من أوراق!

مكتبة التوحيدي

«هذه أوراقُ إدريس، خُذها، أنت أقرب
النّاس إليه، وإلا اشتراها البقالُ ليحرقها
أو يغلّف بها الحمصّ. الكتابة حرفتُك.
اِفعل بها ما تراه نافعاً».

ع.العروي، أوراق

موتُ المؤلّف. انمحاء الذّات من النّص حالَ كتابته، أو حضورها الدّائم فيه. خروج النّص من ملكية الكاتب ودخوله في عداد ملكية القارئ. كلّها أسئلة ونظريات ثانوية، كلامٌ بعديٌّ، غير ممكن إلاّ متى صار النّصُ أوّلاً مُتاحاً : على النّص أن يُنشرَ أوّلاً. وإلى حين أن ينشرَ لا يكاد القارئ يملك من أمره شيئاً. كان من الممكن تصوّر الأمور على نحو مختلفٍ زمنَ الكتابة الشفاهية، حين كان الشّاعر أو الحكّاء، يلهج بنصّه، فلا يعود بمقدوره أن يتراجع، ولا حتّى أن يُعدّل، وإنّما يصير الأمر رهن الرّواة، الذين يمكن اعتبارهم بمثابة ناشري الأزمنة الغابرة، ما داموا هم من كان يضطلع أساساً بدور الوساطة بين «الكاتب» و«القارئ». لكن حين دخل في المعادلة متغيّر النّشر (الذي يمكن اعتباره إلى حينٍ ثابتاً من ثوابت المعادلة)، لم يعد بالإمكان الحديث عن أنّ الكاتبَ لا يملك نصّه، وأنّه يصير ملكاً لتأويل القارئ وقراءته. فالقارئ هو من لا يملك النّص، أو على الأقلّ لا يستطيع أن يمتلكه إلا بعد أن يتمّ نشره. من هنا فإنّ قراراً بسيطاً بعدم النّشر أو حتّى بحرق المخطوطات أو التّخلّص منها يعدم القارئَ كلّ إمكانية لمنازعة

الكاتب نصّه : ماذا سنؤوّل ؟ وعلامَ سنعترضُ ؟ وأيّ قراءة يمكن أن نضطلع بها، ما دام ليس ثمت أصلاً ما يمكن تأويله أو الاعتراض عليه أو حتّى قراءته ؟

ينبغي طبعاً التمييز بين المفقود وبين ما تمّ إعدامه عمداً من كتب. وضعية المفقود وضعية خاصّة جداً، لأنّ المفقود عادة ما يكون الأكثر حضوراً، فعبر اختفائه يستدعي كلّ أشكال التأويل الممكنة، أو على الأقلّ يتمّ الاستشهاد بغيابه أكثر ممّا يتم الاستشهاد بحضور غيره من الكتب. المنسوب أيضاً له وضعٌ خاصٌّ، إنّه في الآن ما نقرُّ بأنّه لا ينتمي إلى الكاتب، لكنه في الآن نفسه ما لا يمكن أن يُقاربَ إلا باعتبار انتمائه إليه. فالمنسوب ليسَ كتاباً مجهولَ المؤلّف، ليس عملاً بلا أصل، وإنّما هو فقط انتماءٌ بدرجةٍ أقلّ للكاتب، الانتماء بدرجةٍ أقلّ يعني أنّه يصيرُ أكثرَ التصاقاً بالمؤلّف من كُتبه. الأمر أشبه بمشكوك النّسب، الذي يستدعي ذكر من ينسب إليه أكثر ممّا يفعلُ غير المشكوك في نسبه. إذ كلّ ذكْرٍ له إلا ويستدعي بالضّرورة ذكرَ من يُنسبُ إليه.

يختلف الكتابُ الذي يقرّر صاحبُه إعدامه عمّا سبق؛ إذ على خلاف الكتابِ المفقود، الذي لا يوحي بأيّ وجودٍ ماديّ، ويظلّ مدعاةً للشكّ (قد يكون مختلَقاً فقط)، والذي مع ذلك يغذّي أملاً غامضاً في إمكان العثور على نُسخةٍ منه في يومٍ من الأيام، فإنّ الكتاب الذي يعدمه مؤلّفه، كان يتمتّع بوجود ماديّ فعليّ، ثمّ اختفى نافياً كلّ إمكانية لينبعث، وحتّى الأدبيات التي درجت على إيراد حالات الكتب التي أتلفها أصحابُها، لا تُخفي حسرتَها من الضياع النهائيّ للكتاب، وتستعيد جميعها عباراتٍ من قبيل «كانت تلك النُسخة الوحيدة، وقد أحرقها في حالة غضب، أو يأسٍ، أو...»، «ولم يصلنا من أعماله (على كثرة ما وصلنا منها) سوى النزر القليل، أمّا أكثره فقد أتلفه بنفسه».

تلك حالُ التّوحيدي وكافكا وعديد الكتاب الآخرين. وجميع متلفي كُتبهم تظهرُ عندهم ثوابت لا يكادون يختلفون فيها :

1- الأعمالُ التي أُتلفت أهمّ وأخطر من تلك التي حُفظت.

2- محضُ صدفةٍ جعلت بعض الكتب يُفلت من الإعدام (تلك الصدفة التي لا تتدخّل في تغيير القانون رقم 1 !)

3- العمل يقع في مرتبةٍ أعلى من القارئ، والقارئ يتجسّد في صورة مُجتمع أو حقبة تاريخية أو أبٍ، لا يستحقُ عناءَ أن نحفظ له هذه الكتب (مع أنّ التوحيدي في رسالةٍ، ربّما تكون منسوبةً إليه، يبرّر إتلاف كتبه بوضعها الهشّ قياساً إلى قوّة الدّهر)

4- لا معنى للكتابة بعد إتلاف الكُتب، أن تعود إلى الكتابة، إقرارٌ بحماقة الفعل الذي أقدمتَ عليه، فعل إحراق الكتب، في حين أنّ الرّهان أكبر : إظهار حماقة الكتابة نفسها !

5- هناك دائماً شخصٌ مبهم، هو في الغالب صديق المؤلّف، تعهد إليه الحبكةُ بإنقاذ جزءٍ من إرث الرّجل !

لنفترض أنّ الأمور جرت عكس ما هو مسطّر تاريخياً، لو أنّ الكتبَ التي أُعدمت هي التي تمَّ الاحتفاظ بها، والكتب المحتفظ بها هي التي أحرقت ! يعرض لي أحياناً أن أتخيّل مكتبةً مؤلّفةً فقط من الكتب المنسوبة والمفقودة والمُتلفة، وفيها سجلٌ ضخمٌ يحوي كلّ عناوين الكتب التي نتوفّر عليها إلى حدّ السّاعة؛ العناوين فقط، أمّا الكُتب فلا وجود لها. أتخيّلُ الأمرَ أشبه بزربيّة أمازيغية يستطيع المرء أن يخمّن من خطوط قفاها الرّسوم التي تزيّنُ وجهها، فعلى المنوال نفسه ستضيء الكتبُ الموجودة تلك التي اختَفت. يزيد يقيني بهذه الفكرة إذ يؤكّده إيماني بأنّ الكتب التي تتلفُ تزيد من إبراز الكتب التي بقيت. لكنّني أحياناً أشكّك في الأمر برمّته، حين أتأمّل كلّ حالةٍ حالة من الحالات التي قيل عنها أنّها أتلفت كُتبها :

كافكا كان مريضا باللامكتمل : رسائلُ يعثر فيها على الفكرة، فيحاول معالجتها في قصص ما هي سوى بروفة يتمّ تطويرها لاحقاً في رواية، والرّواية نفسها لا تكتمل. لم يكتمل شيء في حياةِ الرّجل، حتّى علاقاته الغرامية لم يستطع الذهاب فيها بعيداً وظلّ بتعبير جاكلين راوول دوفال **خطيباً إلى الأبد**؛ لهذا كان ينقصهُ شيء ما في علاقته بمتنه ككلٍ، أن يجعل هذا المتن بأكمله يعتيره النّقص : هل هناك إذن من طريقةٍ أفضل من حرق جزءٍ منه وترك جزء !؟

أما التوحيدي فلم يملك أصلاً أي كتاب، طيلةَ حياته وهو يجاهد في محو اسمه والحديث بلسانِ أساتذته وأعلام عصره، ما الضير إذن في أن يحرق أملاك الآخرين !؟

مكتبة بورخيس
(عناصر أوّلية لبناء المعجم)

وتخيّلتُ الفردوسَ على شكل مكتبة.

بورخيس

الفردوس والجحيم :

بخلاف ما يشاع تماماً عن بورخيس، قلّما تتّصف المكتبة بخصائص الفردوس. من حيث البناء تخضع المكتبة لنظام بالغ الدّقة : هندسياً على شكل طوابق وأشكال هندسية سداسية، لكنّه ليس نظام الاطمئنان، وإنّما هو نظام القلق، نظامٌ جحيميّ، نظامٌ يعيدَك إلى نفسه من كلّ النّواحي. بحيث لا يشكّل اللامتناهي سوى وهمٍ يكرّر دائماً وأبداً صورةَ المتناهي أو المحدود. عدد الطّوابق والرفوف، قد يكونُ غير محدود، لنقُل أنّه فعلاً غير محدودٍ ما دامت لم تحدَّدْهُ تجربةٌ من قبل (لا أحد من القيّمين على المكتبة استطاع أن يحدّها، رغم أنّ منهم من أمضى لياليَ يمشي في الاتّجاه نفسِه)، لكنّ تواتر الطّوابق والرفوف بنفس الشّكل والقياسات يجعلها محدودةً، بحيث يمكن للمرء أن يستعيض في الوصف عن المكتبة برفّ واحدٍ وطابقٍ واحد : تقيم المكتبة كلّها في رفٍّ واحدٍ، وربما في كتابٍ واحدٍ أو حرف لا غير، مثلما تتجلّى الأبدية في لحظة.

الكتاب :

أحد التجليات الكبرى للجحيم : الكتاب. هو أيضاً مزيجٌ من المحدودية واللانهائيّة. محدود لأنّ له دفّتين؛ قد يكون تسفيراً جلدياً رائعاً أو مجرّد ورق عاديّ أو حتّى بلا غلاف، لكن في جميع الحالات يملك الكتاب في بُعده الماديّ بدايةً ونهايةً؛ لكن ما بين الدّفتين هو المشكلة. أوّلاً لا يمكنُ الإمساك بالصّفحتين الأولى ولا الأخيرة، فمهما حاول القارئ إلا والتصقت بأصابعه صفحات إلى ما لانهاية، كأنّ التّصفّح يتمّ في الزّمن لا في المكان (مع أنّ الزمن أيضاً في الفيزياء المعاصرة له بداية ونهاية). أمّا ما بين الدّفّتين، فغير محدود لأنّ لا صفحةَ تتكرّر، كلّما فُتح الكتابُ ينفتح على كتابة أو رسمٍ أو خطّ لم يسبِق أن رآهما قارئ : الصفحات بعدد حبّات الرّمل، غير أنّها لا تتشابه تشابه حبات الرّمل.

الكتب أيضاً لا تتكرّر، حتّى لو كانت نسخاً من نفس الكتاب، ويُلمّح بورخيس إلى وجود قسَمٍ سريّ يؤدّيه عمّال المطابع، يقضي بأن لا يطبعوا أبدا كتابين متماثلين : مجرّد حرف باهت أو لطخة حبر لا ترى إلا بالمجهر، قد تفصل بين نسختين من نفس الكتاب وتجنّب لعنة التّطابق.

بابل :

ما يُعاب على بابل أساساً (وما يشكّل أيضاً ميزتها) هي مأسَسَة الفوضى. لا شكّ أنّ بابل تمثّل سدرةَ منتهى ما بلغه البشر على الأرض : سيطرة تامّة لا يمكن أن تكون إلا نتيجة نظام مُحكم، نظامٍ وحَّدَ كلَّ شيءٍ؛ لكنّ النّظام سرعانَ ما استفحلت شهيّته وأراد أنْ يخرج عن نظَامِه الكليّ وأن يدخل في نظام أعقد : نظام السّماء. والنّتيجة معروفة ولا حاجة إلى إيرادها هنا. لكن ما يهمّنا هو السعي البابليّ إلى تنظيم كلّ شيء، إلى إخضاع كلّ شيء إلى منطق معيّن؛ حتّى أكثر الأشياء التي لا مكان فيها للمنطق: اليناصيب وألعاب الزهر.

في ذروة نظامها / فوضاها أقامت بابل نظاماً محكماً لليانصيب، نظاماً كليّاً يجعل كلّ شيء خاضعاً لقانون اللّعب، الموت والحياة والعبودية والزّواج والتعذيب والجوع والتخمة والسّكون والرّقص.. جميعها مثل الرّبح والخسارة

خاضعة لمنطق اليانصيب البابلي الذي يفرض تصوّره الخاصّ لقانون السّبب والنّتيجة (مثلاً : في اللّيالي المقمرة يحقّ لمن يحمل وشمَ حرف بيتا على ذراعه تعذيب ذوي الشّعر الأصهب؛ وتلك اللّيالي المقمرة نفسها تجعل حامل وشم الحرف بيتا تحت رحمة الموشومين بحرف ألفا... وهكذا...). كلّ لحظة زمنية وكلّ موقفٍ مناسبةٌ لاختبار قانون اليانصيب. وأمام ولع البابليّين المتزايد بألعاب القمار والمراهنات، ستتأسّس الشّركة. لا أحد بالضّبط يعلم من يدير الشركة أو يصدِرُ قوانينها أو يُفيد من أرباحها، لكنّ المؤكّد أنّ الجميع في بابل خاضع لقوة شركة اليانصيب الخفيّة، بما فيها المكتبة !

أن تخضع المكتبة بدورها للشّركة معناه أنّ يخضع كلّ ما يرتبط بالمكتبة (الكتب، الرفوف، القرّاء، القيّمون)، لهذا يظلّ لدى قيّمي مكتبة بابل يقينٌ راسخٌ بأنّ خلف النّظام المحكم للمكتبة، ثمّت لُغزٌ لا يمكن الكشف عنه إلا بقانون الاحتمال والعشوائية والزهر (ما يفسّر نزوعهم إلى خلط الحروف والكلمات أملاً في الوصول إلى الكلمة السرّ، واختفاؤهم الطويل في الحمامات حيث يمارسون ألعاب النّرد) : قانون اليانصيب !

البرلمان :

إذا كانت بابل هي المعادل الموضوعي للفوضى، فإنّ البرلمان هو المعادل الموضوعي للنظّام. يقوم البرلمان في الأساس على فكرة التمثيل، استخلاص التّشابهات العامة من عدّة عناصر ثمّ اختيار عنصر واحد لتمثيل العناصر مجتمعة. ولا يختلف هذا الأمر عن المبدأ الأساس الذي تقوم عليه الرّياضيات أو الفيزياء أو أيّ من العلوم التي لا يمكن لإرنيست روثفورد إلا أن ينعتها بأنّها مجرّد جمع طوابع. لكن إن كان قانون التعميم في العلوم ممكناً بحكم التطابق بين الحالات، فإنّ عناصر البرلمان تطرح بالمقابل مشاكل جمّة فيما يخصّ قانون التمثيل والتعميم.

بعدما تمّ رفض طلبِه الترشّحَ لبرلمان أوروغواي بباعثٍ من أصوله، قرّر الدون أليخاندرو جلنكوي، تأسيس برلمان يتجاوز برلمانَ أوروغواي. بل

يتجاوز كلّ برلمان عرفه البشر. كان قد استوحى الفكرة من واحدٍ من الكتب المائة التي حملها معه أبوه إلى أوروغواي، والتي لم يقرأ الدّون أليخاندرو غيرها طيلةَ حياته، وقرّر إخراجها إلى الواقع : تأسيس برلمان العالم. البرلمان الذي يمثّل بني البشر بأكملهم. المشكلة مع برلمان العالم أنّ قانون التمثيل مفتوح على جميع الاحتمالات، فالبرلمانات المعروفة تحاول ما أمكن حصر ما تمثّله، وبالتالي هي تنظّم نفسها وفق مبدأ الإقصاء أساساً : برلمان أوروغواي يقوم أساساً على تمثيل الأوروغوايانيين، لهذا أوّل ما يعكسه هو إقصاء كلّ من لم يكن أروغوايانياً. بالمقابل يصعب تحديد ما يمثّله برلمان العالم، إذ يقوم جوهره على عدم إقصاء أيّ كان : لنأخذ كاتب هذه السّطور على سبيل المثال، إن تمّ قبوله نائباً في برلمان العالم، فأيّ فئةٍ بالضّبط يمثّلها، هل يمثّل فئة بني البشر، أم بني البشر الذكور، أم بني البشر الذكور من أبناء القارة الإفريقية، أم من بني البشر الأفارقة عموماً ذكورهم وإناثهم، أم الأفارقة النّاطقين بالعربية، أم الأمازيغ الذين يكتبون بالعربيّة، أم الرّجال الثلاثينيين ممّن طعّموا بلقاح BCG وينتمون إلى برج العقرب ولا يعانون من مرض الإسقربوط.... زد على ذلك أنّ مجرّد خروجه من سنّ حيز الثلاثينات سيجعله ينتقل إلى تمثيل الرّجال الذين تمكّنوا من بلوغ سنّ الأربعين... قس على ذلك الكُتب، التي بعد سعيٍ من الدون ألخندرو إلى جمعها من كلّ أطراف الدنيا، انتهى به المطاف إلى إدراكٍ أنّها قد تمثّل في الآن نفسه كلّ الكتب ولا تمثّل أيّ كتاب. كان الشّاعر جامباتيستا مارينو قد حاز في آخر أيّام حياته، وهو ينظر عبر النّافذة من سرير احتضاره، اليقينَ بأنّ الوردة الصّفراء التي ينظر إليها تكمن في ذاتها وليس في الكلمات التي عبّر بها عنها في قصيدته، وأنّ الوردة والقصيدة شيئان منفصلان، ليس أحدهما ملحقاً بالآخر... اليقين ذاته تقريباً بلغه الدّون ألخاندرو وهو يعلن حلّ البرلمان ويأمر بحرق كلّ ما جُمعّ من كُتب : إنّ البرلمان هو أنا وأنت والوردة والقصيدة ودانتي والدّون ألخاندرو... هو كلّ شيء ولاشيء !

السُّور والمكتبة :

بناء السّور وإحراق المكتبة : قد يبدوانِ معاً حادثين منفصلين لا يمكن أن يربط بينهما أيّ سبب منطقي، حتّى وإن كانت تجمع بينهما الواقعة التاريخية (التي يوردها بورخيس كعادته دون ذكر أيّ مصدر واضح)، والتي بموجبها أمرَ إمبراطورٌ صينيّ ببناء سور الصّين العظيم وإحراق كلّ الكتب التي كُتبت قبل بناء السّور. لكن في الحقيقة لا يُمكن الفصل بين الحدثين، إذ أنّ مبدأ الحماية نفسه هو ما يوحّدهما، السور لعزل الدّولة من الخطر الخارجيّ، وإحراق الكتب لحمايتها من أخطار الدّاخل. ثمّت تأويل بسيط ممكن (يورده بورخيس نفسه)، وهو أنّ الإمبراطور الذي شيّد أعظم الصّروح في تاريخ الصّين بأكمله، ما كان أن يتمّ له المجد التّاريخي ما لم يمح كلّ أثرٍ لما سبقه من أباطرة. هذا تأويلٌ ممكنٌ ومنطقيّ، لكن بإمكاننا الدّفع به إلى حدوده القصوى وأن نقول إنّ العمليّتين معاً لم تتمّا إرضاءً لمجد الإمبراطور، وإنّما الزّمن نفسه فرضهُما، بناء سور الصّين العظيم لم يكُن عملاً يخصّ التّاريخ الفرديّ للإمبراطور، وإنّما التّاريخ الجمعيّ لبني البشر، الذي يفرض عند كلّ مرحلة حاسمة محو ألواحه وإعادة الكتابة من جديد. الكارثة لا تنطفئ شهوتُها إلا بالمحو الكامل لما كُتب، ولنا مثلٌ في الطّوفان والغزو المغولي لبغداد، وما يجري اليوم في الشّرق الأوسط؛ لهذا فإنّ تسوير الصيّن لم يكن كافياً وحده لتجنيب الصّينيّين ويلات الغزو، ففضلّ الإمبراطور تقديم القربان للكارثة بنفسه. بعد حرق الكتب لم تعد من ضرورة تاريخية لغزو الصّين، وهو ما لم يشهده الإمبراطور على امتداد ما تبقّى من حياته!

قرد الحبر :

بحسب كتاب **المخلوقات الوهمية** (بترجمة بسّام حجّار)، «يكثر وجود هذا الحيوان في مناطق الشمال، طوله أربع أو خمس بوصات؛ حبيَ بغريزة عجيبة، عيناه أشبه بالعقيق الأحمر ووبره بمثل سواد السبج، ناعم لين وثير كوسادة. نهمه مفرط لحبر الصين، وعندما ينكب أحدهم على التدوين، يقعد يداً فوق يد وساقاً فوق ساق، ريثما يفرغ من التدوين ثم يشرب ما تبقى من الحبر. عقب ذلك يقعي على جري عادته، ساكناً مطمئناً». يضمن هذا القرد توازناً بديعاً

ما بين الفكرة (القوّة) والإنجاز (الفعل)، ما بين النّسخ والأصل؛ بالإمكان بالطّبع نسخ الأصل وتزييفه، بالإمكان صنع عدد لا يتناهى من الأصول التي لا تختلف فيما بينها سوى بنقطة أو حرف، بحيث يصير التغيير غير محسوس من وجهة نظرنا نحن القرّاء البشريّين. لكنّ ما يضمنه القرد، هو تحويل كلّ نسخة إلى عملٍ نهائي غير قابل لأن ينقّح أو يُزاد. بمجرد الفراغ من التدوين يشرب القرد ما تبقّى من حبر، بحيث لا يمكن استعمال نفس الحبر لكتابة عملَيْن، كما لا يمكن من فكرةٍ واحدة صنع كتابَيْن. زد على ذلك أنّ ما يتبقى من حشو أو أفكار شارحة أو تعليقات لم يتمّ تدوينها ساعة الكتابة، والتي هي متضمّنة بالقوّة في ذهن الكاتب وبالفعل في ما تبقى من حبر، تتبخّر بمجرّد أن يضع الكاتب نقطة النّهاية، بمجرّد أن يشرب القرد آخر قطرة حبر.

القارئ والرّاوي :

قرّاء بورخيس (القراء في قصصه وليس قرّاء قصصه)، يحوزون أهميّة تفوق بكثير أهميّة الكتّاب. لا يكتشف القّراء في قصصه المتاهات، ويحلّون الألغاز، بقدر ما يدخلون هم أنفسهم في تركيب المتاهة. عادة ما تكون المتاهة في القصص البوليسية مبنية بشكل مستقلّ عن من يُفترض فيه أن يحل لغزها؛ بخلاف ذلك لا تكون المتاهة في قصص بورخيس مستقلّة عن من يتيه فيها، لا بل إنّه عادةً ما يبنيها هو نفسه بينما يتيه فيها. نادراً ما قد يصادف المرء في نصوصه كاتباً (لم يسبق لي شخصياً أن صادفته)، ولكن لا يكاد يخلو نصٌّ من القارئ أو الرّاوي. عبر القارئ تنكشف الحبكة، لكنّها لا تكون حبكة مستقلّة عنه، وكأنّما هو فقط يعرضها أمام القرّاء، وإنّما هو نفسه قطعةٌ منها. الأمر نفسه يكاد ينسحبُ على الرّاوي، الرّواة إمّا يصوغون الحبكة / يصنعون اللّغز / يبنون في المتاهة أو يتواطؤون على ذلك (موضوعة الخائن والبطل)؛ أو يشكّلون جزءاً منه (البرلمان)؛ أحد الرّواة تجاوز كل ذلك، وبلغ في نهاية القصّة، حدّ اقتراح متاهة أعقد من المتاهة التي دُبّرت له (القتل والبوصلة). لكن ينبغي النّظر أبعد من ذلك، فالقرّاء والرّواة (الرّواة على وجه التّخصيص) يضطلعون بمهمّة أعقد في النّص : مهمة الإحالة المرجعية. فشأنه شأن الجاحظ يولي الكاتب الأرجنتيني

عناية خاصّة جداً بالسّند، السّند أهمّ أحياناً من المتن؛ الأمر قد يبدو مفهوماً جداً في سياق الثقافة التي ينتمي إليها الجاحظ، الثقافة التي تمجّد وتعلي من قيمة ما يُنقل عن الآخرين أكثر ممّا يصدر عن الذات، لذا فقد بلغت السّخرية لدى الجاحظ حدّ اختراع الأسانيد ونسبة ما يقوله هو بنفسه إلى ما يقوله غيره. على المنوال نفسه تنهض الحكاية عند بورخيس على لعبة الإسناد، إيجاد أصول متعدّدة ومتنوّعة لما يُروى، وهو ما يمنح الانطباع بتعدّد المتن نفسه وتنوّعه، كما يوهم بأنّ الحكاية تتجاوز بورخيس نفسه !

مكتبة كيليطو

«لا شيء يبرّر وجودي في المكتبة (الجامعية) حيثُ ما إن أضع فيها قدمي حتّى أتيه وأدوخ !»

دون أن تُقرأَ لا ماهية تحوزَها الكتبُ غير تلك التي تمنحها لها أشكالُها وأحجامُها، إذ تظل المعايير المادية المعايير الوحيدة الممكنة لتمييز كتابٍ عن آخرَ. وحدهُ القارئ يملك «قبضةً من أثر الرّسول»، ينفُخ منها على الكتاب فتصيرُ له هويّةٌ، هويةٌ تختلفُ تعمّقاً وتشابكاً، باختلاف القرّاء وقدرتهم على النّفخ. القرّاءُ إذن هم روح المكتبة، هم من يحوّلُها من مقبرة إلى كرنفال !

لهذا فإنّ وصفاً أميناً للمكتبة لن يقف عند حدود ذكر أبعادها وحساب عدد رفوفها وإحصاء ما عليها من كتب مع ذكر عناوينها وتصنيفها؛ وإنّما سيتجاوز ذلك نحو الاهتمام بالقراء كمّاً ونوعيةً. بل وحتى سيربط ربطاً مباشراً بين الكتب والقرّاء : اختلاف الكتب من حيث عدد القراء الذين يتصفّحونها وما يخّلفونه عليها من آثار؛ واختلاف القرّاء أنفسهم من حيث انتماءاتهم وميولهم.

يهتم كيليطو كثيرا بالقرّاء. لدرجة أنّ من الممكن تحديد أنماط كثيرة من القراء لديه. والبديع لديه أنّ هؤلاء القرّاء يكادون يكونون جميعهم لا قرّاءً ! لا تبرز علاقة القرّاء لديه بفعل القراءة إلا أثناء ممارستهم ما يناقضه. بحيث كلّما ظهرَ عنده قارئ إلاّ وظهرت فيه على الفور خصلةٌ مضادّةٌ للقراءة، حتّى أنّ بوسعنا أن نقدّم جرداً تصنيفياً للاقرّاء كيليطو :

النائم : النّوم إحدى أكبر ألغاز الكتابة والقراءة، لُغزٌ يشغل بال كاتبنا، خصوصاً حين يربطه بأصل الحكاية «شهرزاد»، لا شيء في اللّيالي يشير إلى أنّ شهرزاد أو شهريار كانا ينامان، فهي كانت تعبرُ به الزّمن المخصّص للنّوم، لتكسب يوماً آخر من حياتها. هكذا تكون الحكاية (ومعها الكتابة) مضادّة للنّوم. وعلى خلاف ذلك يربط أبطالُ كيليطو القرّاءُ علاقةً وثيقةً بالنّوم، ما إن ينخرطوا في فعل القراءة حتّى يأخذهم النّوم، هكذا يطيل النّوم فعل القراءة ويفتحه على آفاق أرحب، تماماً مثلما يطيل السّهر أمد الكتابة !

المتقمّص : التّقمّص هو الصّفة الملازمة لروّاد المكتبة. يسمحون لما يقرؤونه بأن ينطبع على جوارحهم الخارجية، وبالتّالي هم يفصحون عمّا ينبغي أن يظلّ محصوراً في العالم الحميم للقراءة، يمنحون القراءة طابعاً برّانياً خارجياً يناقض طبيعتها المفترضة تمام المناقضة !

النّاسخ : النَّسخُ منزلةٌ بين القراءة والكتابة، كتابةٌ تقرأ أو قراءةٌ تكتب، هو أيضاً من هذه النّاحية شكلٌ من أشكال اللا قراءة. ونُسّاخ كيليطو تحديداً لا يحترفون النَّسخَ مهنةً، وإنّما سبيلاً للقراءة. أمرٌ فريدٌ هو ذاك الذي قد يدفعُ قارئاً إلى أن يقرّر نسخَ كتابٍ بأكمله، ثمّ الانتقال إلى نسخ غيره وغيره. يتعارضُ النّسخُ مع الطّباعة من حيث إنه لا يقدّم نُسخاً متشابهةً، وإنّما في كلّ عملية نسخ تظهرُ نُسخةٌ لا تقلُّ أصالةً عن الأصل، إضافةً إلى أنّ من ينسخُ الكتابَ يتبنّاهُ بمعنى ما، يصيرُ نُسختَه الشّخصيّة. دون أن نغفل الطّابع السّحريَّ للنّسخ، إذ لا نكاد نصادف البتّة في أيّ حكاية من حكايات السّحر شخصاً يكتبُ تعويذة (بمعنى يؤلّفها)، وإنّما دائماً يتمّ ترديد العزائم والتعاويذ المنقولة عن أصلٍ يصعبُ تحديده، بمعنى أنّ من يكتب التعويذة هو بمعنى ما ينسخها. ومن هنا الطّابع السّحريّ لعمليّة النّسخ التي يكون لها أثرٌ خارجيٌّ، ومَثَلُ ذلك الطّفلُ (كيليطو) الذي شُفيَ من مرضه بعدما قام بنسخ وصفة الدّواء.

القارئ والمستمع : هي استعادةٌ لحكاية يهودية قديمة (على النّمط البورخيسي)، عن راهبين يهوديّين سافرا لاجتياز امتحانٍ يؤهّلهما ليصيرا حبْرين. أحدهما كان موسوساً بالدّراسة، والآخر يميل إلى اقتصاد جهده. قضيا

ليلة الامتحان في فندقٍ، وسهِر الأوّل يعيد مراجعة دروسه بصوتٍ عالٍ، بينما رقد الثاني على صوت الأوّل. أثناء اجتياز المباراة تلا الأوّل كلّ ما حفظه، بينما أعاد الثاني ما انطبع في ذهنه من كلام صاحبه ليلة الامتحان. النّتيجة، تمّ قبول الثاني لأنّه بحسب زعم اللّجنة، قدّم قراءةً أكثر أصالةً. ما يعني أنّه كلّما كانت القراءة ناقصة، تمّت بطرق ملتوية إلاّ وكانت أكثر أصالةً وبالتّالي أكثر قرباً من النّص، وعلى خلاف ذلك من يقرأُ النّص قراءةً حرفيّة يُمعن في البعد عنه !

على القارئ إذن، ضمن هذا التّصوّر، أن يعكس فعل اللاّ قراءة، التي يمكن اعتبارها الشّكل الوحيد الممكن للقراءة، أن نقرأ فعلياً معناه أن نختارَ سبيلاً مغايرة في قراءتنا، أن نتمرّد على السُّبل الكلاسيكية للقراءة. كأن تقرأ الرّواية البوليسية من آخرها، تقرأ النّتيجة (تتعرّف على القاتل)، تكشف السّر الذي اجتهد الكاتب في إخفائه، ثمّ تعود إلى قراءة السّبيل الذي ينبغي أن يوصلك إلى تلك النّتيجة !

مكتبة يوسا

حتّى وإن كان المصير النّهائي الذي يتحضّر للدّون ريغوبيرتو غير متوقّع تماماً، إلا أنّ حياتَه تظلّ خاضعةً لتنظيمٍ صارمٍ لا يُفلتُ أيَّ تفصيلٍ مهما كانَ بسيطاً أو تافها. كلّ شيء بقدْر، بدءاً منَ العاداتِ اليومية البسيطة كالاستحمام وإخراج فضلات الجسد، التي يرفعها الدّون إلى مرتبة الطّقوس، وصولاً إلى العلاقة المعقّدة بين الفنّ والحياة.

المكتبةُ والمتحف أيضاً عبارةٌ عن نظامٍ صارمٍ : عددٌ محدّد من الكتب (أربعة آلاف مجلّد) واللّوحات (مائة)، لا ينبَغي أنَ يزيد أو ينقص لأيّ سببٍ كانَ. لا يعني ذلك أنّ مكوّنات المكتبة والمتحف الشّخصيّ ثابتة، إذ لا تتوقّف الكتب واللّوحات عن التّغيّر، لكن العدد يظلّ ثابتاً لأنّ الأمكنة محدودة، ولكي يدخلَ كتابٌ جديد إلى المكتبة أو تُضاف لوحةٌ جديدةٌ إلى مجموعة مقتنيات المكتبة الشّخصيّة، ينبغي أن يخليَ مكانه كتابٌ بين الرفوف أو تنزلَ لوحةٌ من موضعها على الجدار. بابُ الدّخول مفتوح وباب الخروج كذلك. وإن كان المدخل والمخرج غير متكافئيَن، لأنّ المدخل مداخلٌ بينما المخرج واحدٌ لا يتغيّر ولا يتبدّل : اقتناء الكتب واللّوحات قد يتمّ بطرقٍ عديدة، أمّا إخراجها من المجموعة الثابتة فلا يكون إلا بسبيلٍ واحدةٍ : المدفأة.

إخراج الكتب من المكتبة، لكي تحتلّ موضعها كتبٌ أخرى أجدرُ منها بالقراءة، لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود النّفي والإخراج : وكأنّما بوسعها أن تحيا حياةً أخرى في مكتباتٍ أخرى لدى قرّاء آخرين، وإنّما ينبغي إعدامها تماماً،

فمن لا يستطيع أن يحوز شرفَ البقاء داخل مكتبةٍ ما، لا ينبغي أن تُمنحه فرصة البقاء والاستمرار في مكتباتٍ أخرى.

مكتباتُنا هي المكتبة الوحيدة الممكنة، هي المقياس لكلّ ما عداها، بمجرّد أن تنتفيَ عن الكتب المعايير اللازمة للاستمرار ضمن مجموعتنا الخاصّة، حتى لا يعود ثمّت من فرقٍ بين أن تُحرَق أو تنتقل إلى مكتبةٍ أخرى. إقصاؤها من مكتبتنا يعني إقصاءها من العالم.

عالم الدّون رويغوبرتو (الذي هو بلا أدنى شكّ يكاد يتطابق مع عالم يوسا نفسه)، يقترب كثيراً من تصوّر العالَم عند الفيلسوف الفرنسيّ جيل دولوز. كان الفيلسوف الفرنسيّ منبهراً بعالم الحيوانات غير المُؤَنسَنة، الحيوانات التي تستطيع أن تحدّد معالم عالمها بدقّة متناهية، في حين أنّ العديد من بني البشر لا يملكون عالماً. الحشرات الطفيلية مثلاً تقتطع من كلّ العالم الشّاسع ثلاثة معالم (الضّوء / رائحة الحيوان الثدِيّ / الجلد)، وكلّ ما عدا ذلك يُلقى به في المحرقة. الدون ريغوبرتو أيضاً يضبط معالم مكتبته / عالمه ضبطاً تاماً :

أوّلاً ينبغي تحديد موقفنا من العلاقة الملتبسة بين الفنّ والواقع : لا يمكن أن نعيش في توتّر بين العالمين وإنّما ينبغي أن ننحاز، إمّا هذا وإمّا ذاك. إمّا طريق الدّون ريغوبيرتو (ما يستحقّ أن نحفظه هو الأشجار التي تخلّدها الأعمال الفنيّة الرّائعة، أمّا أشجار الطّبيعة الغبيّة المتشابهة فلا تستحقّ إلا القطع !)، وإمّا طريق راعي القطيع ألبيرتو كاييرو (لا فائدة من امتلاك بيانو، الأحرى امتلاك آذان والإصغاء للطّبيعة). الدّون من أولئك الذين اختاروا صراحة عالمَ الفنّ. على أنّ امتلاك مكتبةٍ ومتحفٍ شخصيّين يشترط أن يكون المرء مهيّأً لممارسة أصعب المهن وأخطرها : القضاء.

وحتّى لا يظلّ الأمر مجرّد مجازٍ رتّب الدّون قاعةَ محاكمةٍ تامّة الشّروط. بدءاً من الكرسيّ الوثير الذي لا يمكن دونه إصدارُ حكمٍ مطمئنٍّ، إذ حتّى وإن كانت شروط التّفكير الحرّ ترتهن (كما يرى نيتشه) إلى إعمال السّاقين (المشي) بخلاف التّفكير الثقيل الذي يعتمد على المؤخّرة (الجلوس)، والذي يعيبه الفيلسوف الألمانيّ على الرّوائيّ الفرنسيّ فلوبير؛ أقول على الرّغم من الانحياز

إلى المشي في فعل التّفكير إلا أنّ خطورة مهنةٍ بحجم القضاء تتطلّب منّا الجلوس أوّلاً. وصولاً إلى المدفأة التي تعبّر عن الحكم الوحيد الممكن في حقّ ما يُقصى من كتب، حكم الحرق. وهو حكمٌ استقّر عليه الدّون بعد مدّة جرّب فيها أحكاماً مختلفةً أبرزها حكم النّفي من مكتبته إلى مكتبة أخرى، الذي مارسَه طويلاً قبل أن يدرك الحقيقة البيّنة : المجرم الذي ننفيه نهبُه الحريّة بطريقةً أخرى، وبالتّالي نمنحه إمكان إزعاج غيرنا. وعلى المنوال نفسه ما نهديه من كتب صرنا نحتقرها، نمنحها إمكان أن تلوّث عيون وعقول غيرنا. لهذا وجب الحسم مع الكتب حسماً نهائياً، إمّا أنّها تستحقّ البقاء في عالمنا، أو ينبغي أن تختفيَ من العالم بأكمله !

مكتبة بوزفور

م. أ : يتفاجأ من يدخل بيتكَ أوّل مرّة بحجم المكتبة. صغيرٌ جداً، يكاد يكون مخيباً للأمل !

أ. ب : صحيح جداً، لكنّه معقول قياساً إلى حجم البيت. بيتي صغير جداً وضيّق ولا يمكن التضحية بالسّرير أو الكنبة التي يجلس عليها الضيوف، لهذا أحتفظ بعدد محدود من الكتب.

م. أ : ولكنّك تقتني كتباً باستمرار. تكاد تكون مشكلة فيزيائيّة : كيف نضع عدداً لا متناهياً من الكتب، عدداً ما ينفكّ يزداد، في مكتبةٍ لا محدودة جداً ؟

أ. ب : سنوات وأنا أطرح على نفسي هذا السؤال : كيف لم تجتح الكتبُ بيتي الصّغير وتفيض إلى الخارج، بعد أن تغرقني كما أغرقت الأرانب بيت الآنسة الباريسية في قصّة كورتثار الشّهيرة. ربّما أكون قد طوّرت مع الزّمن مهارة خاصّة للتّعامل مع الأرانب. بعضها يحتاج أن يوضع في قفص ويُعرض في الواجهة، وبعضها الآخر ينبغي أن يظلّ حراً يتقافز في أرجاء البيت !

م. أ : جامعُ الكتب إذن مربّي أرانب ؟

أ. ب : والكاتبُ والقارئ والموسيقي والمفكّر... ربّما كانت الحياة بأكملها ليست سوى فنّ تربية الأرانب.

م. أ : لكنّ هذا لا يحلّ المشكلة. أتوقّع بالأحرى أنّ لديك مكتبتين.

أ. ب : واردٌ جداً. لكنّي أفضّل دائماً الحديثَ عن المكتبة بصيغة المفرد. مكتبةٌ واحدةٌ فقط، لكنّ لها ألف تجلٍّ. وإن شئتَ قُل مكتبة واحدة، لكنّها مكتبتان : ظاهرٌ وباطنٌ. واجهةٌ وخلفية. فأنا أستعمل المكتبة الصغيرة التي أمام ناظريك لحفظ بعض الكتب الأساسية (لا تسألني ما أقصد بالأساسية، فأنا لا أعرف كيف صارت أساسية ؟ ولا لِمَ ينبغي اعتبارها أكثر أهميّة ممّا عداها). ولي مكتبة أخرى أشبه بالمخزن تتراكم فيها الكتب التي تفيض بها مكتبتي الصغيرة ويعيل صبر سكان «المُكَان» بها. مع مرور الوقت لم أعد أعرف بالضبط العناوين الموجودة هناك، ولا حتّى عددها، وأخاف حتّى من تقليب المخزن خوفاً من أن تبتلعني الهاوية التي بلعت قبلي آلاف الكتب.

م. أ : لا ترجع إليها بالمرّة !

أ. ب : أحياناً قليلة فقط. آخذ منها بعض الكتب الظّاهرة التي تكون طوع اليد. آخذها بحذر. ويعرض لي كثيراً أن أتذكّر عنواناً وتجتاحني الرغبة في قراءته، لكنّ شيئاً غير مفهوم، شيئاً مستعصياً على التّفسير، يمنعني من بذل الجهد وتقليب كتب المخزن، فأقتني الكتاب مرّة ثانية، وأحيانا ثالثة ورابعة...

م. أ : نعم لاحظتُ أنّ الكثير من الكتب توجد في نسختين أو أكثر، حتى في هذه المكتبة الصّغيرة.

أ. ب : النّسيان...

م. أ : حدّثنا قليلاً عن هذه الكتب التي تسميها الثوابت (ما دمت لا ترغب في أن أستعمل عبارة الكتب الأساسية)، هذه التي مرّ الزّمن وظلّت هي على عرشها ثابتةً لا تتزحزح..

أ. ب : أخبرتك صادقاً أنّي لا أملك أي تفسير مقنع : لِمَ بالضّبط ظلّت بعض الكتب معلّقة «كالمعلّقات» هنا في هذه المكتبة الصّغيرة علماً أنّ المكتبة نفسها متغيّرة ومتحرّكة، لا تثبت على حالٍ أو عدد، لكنّي مذ وعيت على رفوفها وأنا أرى فيها بعض الكتب حتّى أنّ عيني ما عادت قادرةً على تمييزها. اُنظر مثلاً إلى ديوان المتنبّي بشرح البرقوقي، لا أذكر بالضّبط متى اقتنيته، لكنّه كان دائماً هنا، لربّما كان في هذه المكتبة حتّى قبل أن أكون أنا... لكن هذا لا يمنع من

تصنيف بعض الكتب باعتبارها «أساسية»، أسياسيةً لأنّني أرجع إليها دائما... وأقرؤها كأنّني أقرؤها أوّل مرّة... تماماً مثل كتاب الرّمل لبورخيس !

م. أ : أو الكتاب العجيب الذي عثر عليه بطل قصّتك المكتبة !

أ. ب : ربما...

م. أ : القراءة إذن عودةٌ دائمةٌ لما سبقَ أن قرأناه...

أ. ب : عودٌ أبديٌّ، لكنّه عودٌ يجعل الكتاب يشعُّ ببريق مختلفٍ، كأنّك تقرؤه أوّل مرّة : في النّهاية لن تقرأ الكتابَ الواحد مرّتين. جميع الكتب كُتب رملٍ. وتلك التي لا تضيء ببريقٍ مختلف، في كلّ مرّة يفتحها القارئ، لا تستحقّ أصلاً أن تسمّى كتباً.

م. أ : تعيد قراءة ما سبق أن قرأته رغم الكمّ الهائل من الكتب التي صارت بمتناول القارئ. ألا تخشى أن تُضيعَ، وأنت تقرأ كتاباً سبق أن قرأته، أهمّ وأجمل كتابٍ يمكن أن يُقرأ ؟

أ. ب : من يدري لربّما قرأت ذاك الكتابَ أصلاً، أو لربّما أضعت فرصة قراءته فيما مضى ولا إمكان لاستعادتها، ومن يدري قد أكتشف وأنا أعيد قراءة أحد الكتب أنّ أجمل كتاب كان بين يديّ وقرأته دون أن أعرفه. وعلى العموم أن تعيد قراءة الكتب أو تقرأ فقط ما لم تقرأه من قبل لن يغيّر من الأمر شيئاً : سنمضي ولمّا نقرأ إلاّ القليل : عطشُنا بحجم أقيانوس، والحياة لا تمنحنا من الوقت إلا ما يكفي لنرشف قطراتٍ !

م. أ : لا تذكُر أجملَ الكتب التي قرأتَها ؟

أ. ب : بلى ! لحظاتُ الجمال التي ارتبطت عندي بالكتب كثيرةٌ جداً، لدرجة أنّ حلاوة الذكرى ما تزال تأخذ كياني حتّى وإن نسيَت الذّاكرةُ العناوينَ. ويعرض لي أحياناً أن أعيد اكتشاف بعض الكتب التي قرأتُها فيما مضى، فتُشرق روحي في الحال، يعيدني الكتابُ إلى زمنٍ مضى، أو يعيدُ إليّ زمناً مضى، فيغمرني إحساسٌ فريدٌ، أدركُ شيئاً مستعصياً، أراه وأشمّه وألمسه وأصغي إليه وأتذوّقه بحاسّة هي جُماع الحواس بأكملها...

م. أ : الأمر أشبه إذن بما يقَع في قصّتك الفرح.. نمتلئ بلحظة فرحٍ لا ندري من أين أتت حتّى نكاد نغصّ، ثمّ نسقط فننكسر وتطيرُ شظايا الفَرح مالئةً العالم !

أ.ب: تماماً...

م. أ : بمناسبة الكتب التي قرأتَها وتعيدها.. تذكرُ أوّل كتابٍ قرأتَه ؟

أ. ب : طبعاً، والعجيب أنّ الذاكرة نسيت الكتابَ الثاني والثالث والرّابع وحتّى آخر كتابٍ قرأتُه... لكنّها لم تنسَ الكتابَ الأوّل !

م. أ : تماماً كالحبّ الأوّل !

أ. ب : تماماً ! أوّل كتابٍ قرأتُه (اختياراً لا إلزاماً) هو كتاب الأتليدي **إعلامُ النّاس بما وقع للبرامكة مع بني العباس**. وقد أعدت قراءَته مؤخّراً.

م. أ : لنعُد إلى المكتبة. نصّك المكتبة الذي هو فاتحة مجموعتك **نافذة على الدّاخل** مزجٌ فريدٌ ما بين المكتبة الصغرى (الكتاب) والمكتبة الكبرى (العالم). وباعتبار قصص المجموعة من زاوية معيّنة هيَ نافذةٌ على داخلك. هل عشت هذا التوتّر ما بين العالَمين : مكتبتك ومكتبة العالم المعقّد، مثلما حدث مع البطل؟

أ. ب : وما زلتُ إلى الآن. وغالباً ما أجد العالمَ أعقدَ بكثيرٍ من الكُتب. أعتقد أنّ جميع القراء يعيشون هذا التوتّر. بعضهم يغرق تماماً في عالم الكتب المضلّل، وبعضهم الآخر يستفيق (مثلما حدث مع بطل قصة المكتبة) ويعود إلى عالم الواقع الأضلّ، والقلّة القليلة فقط تظلّ كسكّان «الأعراف» على العتبة، لا هم هنا ولا هم هناك. اللّهم اجعلنا من سكّان العتبة !

م. أ : لو أنّك وجدتَ نظيرَ الكتاب العجيب الذي وجدَه بطلُ قصّتك. أكنتَ لتستغني عمّا عداه من الكتب ؟

أ. ب : صدقاً لا أدري ! لا أدري حتّى إن كان ما يزال بمقدوري أن أدّعيَ إمكان التّخلّي عن الكتب، أخشى أنّها هي من بات يتخلّى عنّي... أبدأ القراءة فيبدأ جسدي المتعب في إظهار كلّ آليات المقاومة، أقلّها النّوم !

م. أ : والنّوم أيضاً قد يكون قراءة...

أ. ب : قد...

مكتبة سارتر

مشكلة نظريات التّعلّم، شأنها شأن غيرها من النّظريات، هي التّعميم. محاولة رسم خطاطة عامّة للعمليّة التي يتمّ وفقها التّعلّم عبر استقراء أكبر عددٍ ممكن من الحالات الفردية، ومن ثَمّ وضع قانون عامّ ينبغي أن يخضع له الجميع، بدرجة أو بأخرى. قد يصدق الأمر على عملية التّعلّم في معناها العامّ، حيث يشترك أبناء النّوع الحيواني جميعهم، لكنّ الأمر يظلُّ قاصراً عن فهم الآليات التي تجعلُ بعض بني البشر قرّاءً وآخرين غيرَ قرّاء. بل حتّى تلك اللّحظة التي تشير إلى انتقالنا من مرحلة الجهل بالقراءة وفكّ رموز الحروف، إلى المرحلة التي نسير فيها قادرين على قراءة الشفرة السريّة المسمّاة كتابة، تلك اللّحظة تظلّ عصيّة على الإمساك. لا أحد يستطيع أن يدّعي أنّ جميع بني البشر يتعلّمون القراءة في المدرسة، وأنّنا نكتسب القدرة عليها في نفس السّن تقريباً.

تعلّم القراءة لحظة لا تقلّ أهميّة وحميميةً عن تعلّم الكلام أو الجنس، لحظةٌ حاسمةٌ سرعان ما تنمحي في الزمن، ليس عبر التبدّد في ضباب الذكريات الكثيف، وإنّما عبر الانصهار التّام في طرفي الزمن (ما مضى وما هو آت)، بحيث يستحيل على القارئ أن يحدّد اللحظة التي خطا فيها تلك الخطوة التي نقلته من الانتماء العام لأبناء جنسه إلى الانتماء المخصوص لفئةٍ ضيقة تسمّى «القرّاء».

نصادفُ في التراجم والسيَر، القديمة منها على وجه التّخصيص، عباراتٍ مضلّلة جداً، من قبيل : «نشأ وترعرع في بيت علم»، أو «كان والده قيِّمَ مكتبةٍ»، وهي عبارات تنسبَ فضل الإصابة بمرض القراءة كلّه إلى السياق العامّ الذي

نشأ فيه القارئ، وكأنّما يكفي أن «يولد الإنسانُ في مكتبةٍ (على غرار تودوروف) ليصيرَ قارئاً»، أو «يختلف إلى مجالس الشّعراء ليصيرَ شاعراً» !

يتطلّب تعلّم القراءة ابتكارَ أسلوب شخصيّ فريد لنظام التعلّم نفسه، أشبه بذاك الذي ابتكره أوسكار، بمساعدة راسبوتين، في رواية **الطّبل الصّفيح** لغونتر غراس !

كاتبةٌ أخرى صوّرت بدقّةٍ تعلّمها للقراءة والكتابة والكلام، هي البلجيكية أميلي نوثومب، التي كتبت سيرتها الذّاتية من الولادة إلى سنّ الثالثة ! كان الأمر بسيطاً بالنّسبة لها، تتكلّم فتجد نفسك تعرف الكلام، تأخذ كتاباً تقرأ فيه فتجد نفسك منخرطاً في فعل القراءة، كأنّما كنتَ دائماً قارئاً.

يذهبُ سارتر أبعد من ذلك، فهو قد بدأ جامعاً للكتب حتّى قبل أن يتعلّم القراءة، كان يريد أن يمتلك مكتبةً شخصيةً قبل أن يدرك وظيفةَ الكتب؛ ولم يكتسب عادة القراءة بمفرده فحسب، بل وتعلّم فعل القراءة نفسَه بنفسِه. لا يستطيع أن يحدّد كيف تمّ ذلك، ولا يدين فيه إلى أيّ مؤسّسة رسمية، فلا الأسرة ولا المدرسة علّماه القراءة، وإنّما يعود الفضل بأكمله إلى كتابٍ واحدٍ : **بلا عائلة** لإيكتور مالو. يقول الفيلسوف الفرنسي إنّه تعلّم القراءة بتقليب صفحات كتاب إكتور مالو، وحين فرغ من «قراءته» كان قد صار يعرف القراءة !

لا يخفى علينا طبعاً التأويل الممكن الذي ينطوي عليه كلام سارتر، فاختيار العنوان الذي علّمه القراءة، ليس بريئاً بالمرّة، فهو من دون كتب الأطفال جميعها اختار الكتابَ الذي يحمل عنوان «بلا عائلة»، كأنّما اكتسابُ عادة القراءة يتطلّب خروجاً من سجلّ العائلة، وممارسةً مضادةً للمؤسّسات الرّسمية التي تعلّمنا القراءة والكتابة لكنّها لا تجعلنا قرّاء !

التحوّل إلى قارئ إذن يتمّ في الغالب الأعمّ ضداً على السياق الاجتماعي لا مسايرةً له، القرّاء هم غرباء السيّاق، النوتة الشّاذة، نصيرُ قرّاءً فعلياً حين ننال القليل من الإطراء والكثير من اللّوم. تقول أغوتا كريستوف:

«باستثناء فخر جدّي بي، لم تحمل لي القراءة إلا اللّوم والاحتقار :

«إنّها لا تفعل شيئاً. تقرأ طيلةَ الوقت»

«لا تحسن شيئاً آخرَ»

«إنّها أكثر المشاغل خمولاً»

«إنّه الكسل»

وخاصة :

«إنّها تقرأ عوضَ أن...»

عوض ماذا ؟

«ثمّت العديدُ من الأشياء الأكثر أهميّة، أليسَ كذلك ؟»»

هل من سبيل إذن إلى إكساب الآخرين عادة القراءة ؟ أُنثر الكتبَ كالحَبِّ في كلّ مكانٍ وانتظر أن يقع عليها القارئ بنفسه. اكتفِ بنصب الفخاخ بعناية في كلّ مكانٍ، وانتظر أن ينادي الفخّ الطريدة !

مكتبة زفزاف

يهدونك كتبهم. لا يتوقّفون عن فعل ذلك. كلّما كتبَ أحدهم كتاباً صارَ إلى توزيعه في كلّ محفل. يتصيّد الواحد منهم الأمسيات واللّقاءات الثقافية، يأتي متأبّطاً كيساً ورقياً يضمّ نسخاً عديدة من كتابه حديث الطّبع، أو كتابه الأخير (والأخيرُ والحديثُ وصفَان غير دقيقين قد يعنيان صدور الكتاب منذ بضع سنوات)، أو يكتفي بحمل عدد محدّد من النّسخ (خمسة أو عشرة) في محفظته الجلدية، وينتظر انتهاء اللّقاء الثقافي، ليندسّ في الأحاديث الجانبية وبعد أن يقرأ الأمان يستلّ من جرابه نسخةً من كتابه، ويقول لك : «بالمناسبة، هل لديك نسخة من كتابي الأخير ؟» بالطّبع النسخة ليست لديك. تأخذ منه الكتاب وتنظر إليه بإعجاب ثمّ تقلّب صفحاته باحثاً عن شيء لا تعرفه، ثمّ بعد أن تشكره ينصرف بحثاً عن شخصٍ آخر يعيد معه اللّعبة. كأنّما هو يتخلّص من ثقل.

في البداية عندما وقف عند صاحب المطبعة، فسأله ذاك عن عدد النسخ التي يودّ طبعها، أجابه «ألف»، وفكّر في أنّ ألفاً عدد محترم ولكنّه غير كافٍ. ثمّ ما لبث، شهوراً بعد ذلك، أن أدرك أنّ ألفاً ليس رقماً محترماً فحسب، وإنّما هو عدد كبير جداً، عدد مهولٌ، عددٌ مرعب، ألف تكاد تساوي اللانهاية... وها هي النّسخ ما تزال متكدّسة تشغل حيزاً كبيراً من غرفة المعيشة، لم يعد يشعر بأيّ فخرٍ حين يراها الضيوف، فالضيوف سيعجبون بكتابك، حين تكون لديك منه نسخة واحدة، تضعها في مكانٍ بارز لكن لا ينمّ عن رغبةٍ في الإظهار والظّهور، تماماً مثل رسالة

إدغار آلان بو المسروقة، قلنا سيعجب الضيوفُ بنسختك الواحدة، خصوصاً إذا ما اعتذرت عن منحهم إيّاها متعلّلا بكونها آخر النّسخ ! أمّا أن تكون النّسخ مكدّسة كأكياس «البطاطا»، فذاك أمرٌ يبعث على الشعور بالعار... لكن ما الحلّ، والنسخ وُزعت ولم يُبَع منها إلا القليل، ولا أحد يبدي اهتمامه بتوزيعها جدياً، وحتّى حين يتمّ استدعاؤك إلى أمسية توقيع تظلّ جالساً كالأبله يسلّم عليك النّاس ولا يمدّون يدهم إلى كتابك ؟ الحلّ إذن أن تُهدي الكتب، تفرّقها علينا في كلّ محفل، هكذا تتناقص «أكياس البطاطا» المزعجة من غرفة معيشتك وتتكدّس في مكتباتنا نحن !

كُتب من كلّ شكلٍ وحجم ونوع، القاسم المشترك بينها، أنّك لم تقتنها، ولا استعرتها ولم تعدها إلى أصحابها، ولا سرقتها، ولا ألححت على أحدهم من أجل أن يهديها إياك، وإنّما فقط أُهديت إياها دون مناسبةٍ، مع توقيع غريب جداً في الصّفحة الأولى منها. في البداية قد يروقك أن يُهدى إياك كتابٌ أو اثنان، ثمّ ما يلبث الأمر أن يصير مزعجاً، وتبدأ تلك الكتب في اجتياح مكتبتك ومزاحمة الكتب التي أمضيت عمراً في اقتنائها وجمعها وترتيبها. إنّهم يتخلّصون من كتبهم ويلصقونها فيك، كلعنة لا تزول إلا بإلصاقها في شخصٍ آخر. عليك أن تبتكرَ حلاً سريعاً يعيد التوازن إلى مكتبتك. بعضهم يبيع الكتب التي أُهديت له بعد أن يمزّق ورقة الإهداء، وبعضهم تبلغ به الوقاحة حدّ بيعها دون القيام بذلك، وبعضهم ينساها ببساطةٍ في القطار... وبعضهم... المهم عليك أن تبتكر طريقةً للتخلّص منها، مثلما اجتهد كاتبها وتخلّص منها فيك !

كان محمّد زفزاف (والعهدة طبعاً على من روَوا لي نُتفاً من حياته التي لم أجايلها)، قد ابتكر نظاماً فريداً لموازنة المكتبة. أوّلاً لا ينبغي رفض أيّ كتابٍ يُهدى، ليس لباقةً، وإنّما فقط اقتصاداً للشّرح والتّفسير. وثانياً ينبغي تدبير العلاقة بين الكتب ذات الأهميّة الفعلية بالنّسبة للكاتب، وبين تلك التي لا يمكن إلا أن تحتل المساحة دون أن تقدّم أيّ فائدة تُذكر. بالطّبع لم يكن زفزاف يتخلص من الكتب التي تُهدى إياه حال أن يستدير المُهدي، على غرار الشّاعر الكبير الذي كان بعد أن يفرغ من أمسياته السنوية في المغرب ينسى في المطار

الكتبَ التي تهدى إياه؛ قلنا إنّ زفزاف لم يكن يتخلّص من الكتب التي تُهدى إياه، وإنّما يدخلها إلى مكتبته الخاصّة المبنية وفق نظام معقّد : نظام أشبه بمحكمة أخروية يشرف عليها إلهٌ مهمّته تدقيق من يستطيع أن يعبر الصّراط ومن يفشل دون ذلك.

كان الرّجل يستقبل كلّ ما يُهدى إياه من كتبٍ مبتسماً، مثلما يليق بإلهٍ طيبٍ يستقبل رعاياهُ يوم عرضهم بين يديه، ثمّ يخضعهم إلى حسابٍ سريعٍ يصنّفهم به، بين ما يمكن أن يدخل الجنّة وما يلقى به فوراً إلى الجحيم وماً يظلّ بين المقامين إلى حين. لا يتعلّق الأمر هنا بمجازٍ محض، لقد بنى الرّجل بالفعل نظاماً متكاملاً لمكتبة تقوم على تصنيف الكتب؛ نظاماً قوامه رفوف معلّقة وسريرٌ تحته صناديقُ خزن : الرفوف المعلّقة هي الجنّة التي لا تصعد إليها إلا كتب الصّفوة؛ أمّا الصناديق تحت السّرير فالجحيم الذي يلقى فيها بما لا يمكن قراءته ولا تحملّه من كتب؛ بينما يظلّ ما تبقى من مساحة البيت مكاناً صالحاً لكلّ الكتب التي لم يُحسم في أمرها بعد، تلك التي ستخضع لعمليات انتخابٍ معقّدة، فإمّا أن تصعد إلى قسم الصفوة، حيث النّور والمقاعد المحدودة، أو تنحدر إلى غَيابَة الجحيم حيث المساحة لا حدّ لها، لا نهائية بقدر لا نهائية الكتب الرّديئة التي يصرّ أصحابها على إهدائنا إيّاها !

مكتبة ابن بطوطة

على غرار حفنة قد تعد صغيرة قياساً إلى غيرها من بني البشر (صغيرة لكنها مميزة بالنظر إلى اعتبارات عديدة)، لا يستطيع أن يتصور إمكان الإقامة في بيت لا يتوفر على مكتبة. هو لا يملك بالضرورة تصوراً فلسفياً خاصاً عن هندسة المنازل على غرار الدون ريغوبيرتو الذي صمّم منزله ومكتبته وفق فلسفة تعطي الأولوية للأشياء على السكّان، ولكنّه يوقن تمام اليقين أنّ بيتاً لا تسنده مكتبةٌ هو بيت آيلٌ للسقّوط : المكتبة دعامةُ البيت. لهذا أوّل ما يستبدّ بذهنه من أسئلةٍ كلّما انتقلَ إلى بيتٍ جديدٍ هو السؤال : أينَ سيضع المكتبة ؟

المشكلة أنّ انتقاله من بيتٍ إلى بيت، ومن أرض إلى أخرى، يكادُ يكون أبدياً. الترحال إقامته الوحيدة. وجميع المشاكل التي تترتّب عادة عن التنقّل الدائم (السكن، العلاقات الجديدة، الطقس المختلف، الغربة..) كلّها مشاكل مؤجّلة مقارنة مع مشكلته الأبديّة : ماذا سيصنع بالمكتبة ؟

بالنّسبة للمترحّل قلّما تطرح له الأشياء مشكلة فعليّة، فهو لا يأخذ منها إلاّ ما خفّ وكان ضرورياً ولم يمكن الاستغناء عنه، وبالإمكان إيجاد نظائرها في أيّ مكانٍ حلّ به. لكنّ المشكلة هي أنّ الكتب لا تخضع لهذه القاعدة : لا ترابط منطقي في الكتب بين الحجم والقيمة، وتقريباً لا كتابَ يعوّض آخر. لهذا كلّما تنقّل صاحب المكتبة إلا وواجهته المشكلة الأبديّة التي لا حلّ لها تقريباً : ما مصير المكتبة ؟

قد نتصوّر حلاً بسيطاً مماثلاً لذاك الذي لجأ له أحد أمراء العرب القدماء، والذي كان يحمل كتبه معه، أثناء ترحّله، على ظهور عشراتِ الجمال : مكتبة متنقّلة. لكن يبدو الحلّ غير عمليٍّ بالمرّة، ومتعذّر التّطبيق حتّى لو استبدلت الجِمال بوسائل نقلٍ أخرى.

عادةً ما يُتخَذ الإشكالُ السّابق حجّةً من طرف المدافعين عن المكتبات الإلكترونيّة التي تعمل وفق شعار : «احمل مكتبتك بأكملها في جيبك !»، والذين يرون فيه الدّليل الدّامغ على أنّ الكتاب الورقيّ الثقيل هوَ إلى زوال. لكنّ ذلك يظلّ كلاماً لا معنى له بالنّسبة لجامع الكتب، الذي يرى أن لا معنى لجمع الكتب كلّها في كبسولةٍ مضغوطةٍ يمكنُ أن تأتيَ على ذاكرة المكتبة بأكملها بضغطةِ زرٍّ واحدة. زد على أنّ تلك ليست كُتباً وإنّما مجرّد صورٍ، مجرّد وهم كُتب.

أمام استحالة نقل المكتبة لا يبقى أمامنا إلا حلّ المكتبة المفتوحة، المكتبة التي تعيدُ تجديد نفسها كلّ مرّة في مكانٍ آخر. الأمر أشبه ما يكون بنباتات الأرمول التي يُؤخذ في كلّ مرّةٍ منها فسيلٌ ويتمّ غرسه في أرضٍ أخرى لتعيد دورة حياتها من جديد. وهذا حلٌ مريحٌ تقريباً، تأخذ معك جزءاً من المكتبة، جزءاً تراه الأهمّ، جزءاً صالحاً ليبثّ حياةَ المكتبة في مكانٍ آخر، ومنه تنشئ مكتبةً، هي ليست مكتبةً جديدةً وإنّما استمرارٌ لمكتبتك السّابقة التي هي بدورها استمرارٌ لمكتبةٍ سابقة أخرى، وهكذا... مكتبةٌ لا تنتهي، دائمةُ التفرّع بحثاً عن أصول جديدة.

قد نتصوّر حلاً آخر أقلّ تكلفةً وجهداً، ويتمتّع بقدرٍ من الواقعية، وهو حلّ الكتاب الواحد، الكتاب المختار. ولا يتعلّق الأمر هنا بأيّ تخييل من النّوع البورخيسي، وإنّما بواقعٍ له ما يسنده تاريخياً، فصاحبنا (صاحبُ الجِمال)، على سبيل المثال، كان قد تخلّص من ضرورة حمل الكتب وسَوْق تلك الجِمال كلّها حين عثر على كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهانيّ، والذي رأى فيه غنىً عن كلّ ما عداه من كتب. وذاك ما تسنده فطرةُ بني البشر التي تتعلّق عموماً بالكتاب أكثر من تعلّقها بالمكتبة، ملايير البشر يرون أنّ الحكمة الخالدة يختصرها كتابٌ

واحدٌ أكثر ممّا تختزنها مكتبةٌ بأكملها، لذا لن يكون على المترحّل سوى أن يختارَ كتابه الأوحد !

ثمّــت إمكانٌ أخيرٌ، يمكن استنتاجه من حياة الرّحالة ابن بطّوطة : كلّ أرضٍ لها قواعدُ خاصّة، ولا يمكن أن تشكّل استمراراً لما سبقها، ذاك أنّ التنقّل لا يعني فقط استبدال الأرض وإنّما استبدال حياةٍ بحياة، ولكي تمنح الحياة الجديدة كامل إمكاناتها لا ينبغي أن تبدأها بمادةٍ مستقاةٍ من الحياة السّابقة. لقد ذهب الرّحالة المغربيّ إلى أبعد ما يمكن أن يتصوّره إنسانٌ في علاقته بالترحّل، ما إن يستقرّ له الأمر ويبلغ وضعية اجتماعية معتبَرَةً ويكوّن أسرةً، حتّى يستبدّ به رُهاب الجذور، يخافُ أن يتحوّل إلى شجرةٍ ثابتةٍ في الأرض لا تستطيع الحركة، فيخلّف كلّ شيءٍ وراء ظهره ويعود إلى الترحّل تاركاً المال والأبناء «لا يدري ما صنع بهم الدّهر !»

تريد أن تكون مترحّلاً، إليك الحلّ : تترك المكتبة في محلّها دون زيادةٍ أو نقصان، لا تحملُ منها أيّ كتابٍ، فقط توضّب حقيبتك، وتغلق البابَ خلفك بهدوء !

مكتبة فيتغنشتاين

كتاب واحد فقط لا غير، لكنّه يؤلّف مكتبةً بأكملها؛ أو مكتبةٌ بأكملها لكنّها لا تضمّ سوى كتابٍ واحدٍ فقط لا غير !

محاولةً لوضع تمييزٍ بسيط ينبني عليه ما هو آتٍ سنستعمل كلمة «عمل» بدلاً من كلمة «كتاب». المشكلة مع مكتبة العمل الواحد أنّها ليست مكتبةً تمتلك كتاباً واحداً، وهو ما قد نتخيّله بُيسرٍ عن طريقِ تحويلها إلى مُتحفٍ هدفه السّهر ليلَ نهار على حراسةِ نسخةٍ (نفيسةٍ بقدرٍ ما) من كتابٍ واحدٍ لا يُمكن استنساخه، ولا توجد نسخةٌ أخرى منه (على غرار الحراسة المشدّدة التي توفّرها السّلطات الكينية لـ«سودان»، آخر ذكر وحيد قرن أبيض) ؛ وإنّما هي مكتبةٌ تقدّم مئات النّسخ من كتابٍ واحدٍ، مانحةً إيّاه شرف الاحتلال الحصريّ لرفوف المكتبة ككلّ.

مكتبةٌ جميع رفوفها لا تضمّ إلا كتاباً واحداً هي أشبه بمتجرٍ يعرض منتوجاً واحداً على سبيل الحصر، أو خزانة مطبخ لا شيء فيها إلا علب النوتيلا. ويعرف المشتغلون بميدان التسويق أنّ إغراق السّوق بمنتوجٍ لا يقلّ إغراءً عن إخفاء المنتوج بالكامل، بحيث يبدو كأنّما اختفى بالكامل، فكلا التدبيرين يحفّزان في المشتري غريزة الهرع والهلع ! لكن إذا ما كان ذلك حال المنتوجات التي لا ينفذ استهلاكها، المنتوجات التي نستهلكها مرّة بعد أخرى دون أن نستنفذ علاقتنا الاستهلاكية بها، فهل يصدق الأمر نفسه على الكتب، مع الأخذ بميزان الاعتبار أنّ الرّاسخ في الأذهان هو كون المكتبات تحوز قيمتها من كثرة كتبها أو نُدرتها ؟

ليست مكتبة العمل الواحد مجرّد تخييل أدبيٍّ، وإنّما لها وجودٌ واقعيٌّ ومجرّب : مكتبة موريوكا شوتن غينزا، باليابان، التي تعرض كتاباً واحداً لستّة أيّام متتالية. كلّ أسبوع يتمّ تفريغ رفوف المكتبة بأكملها، وملؤها بنسخ عديدة من كتابٍ واحدٍ لا غير، كتاب يتمّ عرضه وبيعه طيلة ستّة أيام. والنّتيجة بحسب صاحب المكتبة، مبيعاتٌ مهولة للكتاب. النّاس يقطعون مسافاتٍ طويلةً للحصول على نسخةٍ من الكتاب، مع أنّه قد يوجد في مكتبات قريبةٍ من سكناهم، وكأنّما العرض الحصريّ له، يصيبهم بهلع نفاذه، ويبرِّز فيه قيمةً ما كان ليحوزها وهو غارقٌ وسط غيره من الكتب !

يصف برتراند راسل ببراعةٍ في نصّ كتبه عن تلميذه فيتغنشتاين، كيف أنّهما أثناء رحلتهما إلى روسيا، وجدا مكتبةً، كان صاحبها يبيع كتاباً واحداً فقط : **الإنجيل**. الغريب أنّك عندما تواجه هذا النّوع من المكتبات، تضطرّ إلى شراء الكتاب حتّى وإن لم يكن يعني لك شيئاً، بخلاف المكتبات التي تعرض آلاف الكتب، والتي قد تجوبها من أقصاها إلى أقصاها دون أن تقتنيَ منها أيّ كتابٍ. كأنّما العرض المكثّف للكتابِ يوهمك بأنّه على وشك أن ينفذ وأنّ عليك أن تفوز بنسختك منه. لقد اشترى المنطقيّ النمساوي **الإنجيل**، وصار في غضون أيّامٍ مؤمناً ورعاً، ينظر بريبةٍ إلى صديقه برتراند راسل.

قد تتوافق، بشيء من الشّطط في التّخييل، مكتبة العمل الواحد مع التّصور العام الذي يحمله فيتغنشتاين عن العالم والفلسفة والموسيقى واللّغة، التي، بحسب المنطقيّ النمساوي، يمكن تدوينها جميعاً بفضل اللّغة، في عباراتٍ وجيزةٍ تختصر كلّ شيء، وهو الذي سعى إليه هو نفسه في كتابه **رسالة منطقية-فلسفية**، حيث سعى إلى تحويل العالم بأكمله إلى كتابٍ واحدٍ يختزل كلّ شيء.

وبقليل من التّأمل لا يبدو في سعي فيتغنشتاين أيّ غرابةٍ أو فرادة، ذاك أنّ العدد الأكبر من بني البشر أصلاً يؤمنون بكتاب واحد لا غير !

مكتبة المأمون

مهما كانت المتعة بسيطةً ومجّانيّة. بوسع الأغنياء أن يمارسوها بُطرق أمتع وأعقد وأغرب.

بالطّبع، لا سبيل إلى التّمييز في القراءة ما بين غنيٍّ وفقير، اللّهم باعتبار مدى إمكان حصول كلّ منهما على الكتب. وحتّى إن كانَ بعض السوسيولوجيّين يصرّون على أنّ الوسط الاجتماعي يتدخّل بشكلٍ حاسمٍ في تشكيل الذائقة الفنيّة، إلاّ أنّه في الأدب تحديداً يصعب الفصل في اختلاف هذه الذائقة. دوستويفسكي صديقُ الجميع، أغنياء وفقراء، ورواياته لا تميّز بين رفوف الأبنوس الفاخر أو رفوف الكارتون الرّخيص. لكن إن كان هو لا يُفرّق، فنحنُ نفعل : لماذا يقرأ الأثرياء ؟ أيّ متعةٍ قد يجدُها ملكٌ أو سلطانٌ في القراءة ؟ قارئٌ فقيرٌ، هي صورةٌ تتناسبُ كثيراً مع المخيال الذي تشكّلَ لدينا عبر تاريخنا القرائيّ منذ الطّفولة : غرفة صغيرةٌ قليلة الإنارة، والوقتُ غالباً ليلٌ، والقارئ منهمكٌ تماماً في تصفّح كتابٍ، هو عزاءُه الوحيد في هذا العالم الذي ضنَّ عليه بكلّ شيء. هكذا يصير فعل القراءة نفسه تعبيراً عن الفقر، تجرّداً من كلّ شيء. لكي تصيرَ قارئاً، ينبغي أن تُعدم كلَّ إمكانٍ للوصول إلى المعرفة والمتعة اللهم إلاّ بالاعتماد على نفسك وحواسك. لهذا يكون التّمييز الذي نعثر عليه في الكتب، ما بين أغنياء القراء وفقرائهم تمييزاً من حيث الحاسّة التي يعتمدون عليها أكثر. قراءة الفقراء هي القراءة الطبيعية، قراءة العين. أمّا السّلاطين والملوك، فعادة ما يتمّ تقديمهم بوصفهم قرّاءَ سمع. يعتمدون على الأذن في القراءة. ويعتمدون، في الغالب

الأعمّ على شخص وسيطٍ بينهم وبين الكتاب.

ليست مجالسُ الفكر والأدب التي يزخر بها التّاريخ، العربي على وجه التّخصيص، حاشيةً على القراءة. فهي لا تشبه في شيء صالونات الأدب حيث تتمّ مناقشة الكتب التي يفترض أنّها قُرئت مُسبقاً، وأنّ القراء يجتمعون هاهُنا لإعادة إنتاجها إنتاجاً جمعياً. وإنّما تلك المجالس هي طريقة السّلاطين في القراءة.

قد يغلبُ إلى الظنّ أنّ فعل القراءة لا يتناسب إلاّ مع مقام الفردانية، لا يمكن للمرء أن يقرأ بأربعة أعْين، وكلُّ قراءةٍ هي حوارٌ شخصيٌّ مباشرٌ يعقده قارئٌ مع كتابٍ، حوارٌ متى انتفت فيه الحميمية والخصوصية، فقد كلّ مُتعته. ولكن كلّ ما سبق لا يمكن أن ينفيَ إمكان أن تفوق مُتعة القراءة على طريقة الخليفة المأمون ورفاقه كلّ متعةٍ سواها. أن تكون لك إمكانية أن تقرأ بعقول الآخرين وأنظارهم وجوارحهم. تتّخذ موضعك في صدرِ المجلس، ثمّ تبدأ في ضبط إيقاع القراءة، متصفّحاً عدداً من الكتب دون أيّ مجهودٍ يُذكر. توقف هذا في هذه اللّحظة وتطلبُ بدايةَ ذاك. وتحصلُ على تعاليق قرّاءَ ومؤلّفين آخرين في نفس الوقت. لا بل وتطلب معنى كلمةٍ أو شرح بيت أو مثالاً شارحاً لقضيّة فلسفية، فيأتيك الجوابُ مباشرةً، كأنّك تتمتّع بخدمة غوغل في القرن الثامن للميلاد. ولأنّ من يقرؤون لك هم من الكُتّابِ المرموقين، قد تصير قراءتُك نفسها كتاباً يُقرأ. وهذا حالُ عديد الكتب الرّائعة التي ليست في الحقيقة سوى نقلٍ لمجالس الملوك، وتجسيداً لقراءتهم الحيّة للنّصوص.

هل من متعةٍ إذن تضاهي قراءةً حيّةً متعدّدةً، تصيرُ كتابةً في الآن نفسه ؟

على أنّ أفضل ما في هذا النّمط من القراءة هو أنّها لا تتعاملُ مع مكتبةٍ قوامُها الخشب والورق، وإنّما اللّحم والدّم. فمهما بلغت درجة المعرفة التي تنطوي عليها الكتب، لا يمكنها أن تعوّض الخبرات الحيّة، التي تقدّمها الكائنات التي تنبعث منها الحرارة. نحتاج إلى خبراتٍ بشريّة، حتّى وإن كان قوامها التضليل والكذب والتّمويه، قدر حاجتنا إلى المعرفة التي تمنحنا إيّاها الكُتب، مهما كانت هذه المعرفة موضوعيّة و«علميّة».

إحدى الدول الأوروبية (النّمسا إن لم تضلّلني الذاكرة) قامت بتجربة المكتبة الحية، مكتبة الخبرات البشرية، حيث لا تقتني كتاباً، وإنّما تقتني شخصاً يرافقك يوماً بأكمله، تستطيع أن تسأله ما شئت وتستعين به فيما شئت. عدد من المتطوّعين هم بمثابة كتب تسير على قدمين، تستطيع أن تستعير أحدهم نهاراً بأكمله، تقلّب صفحاته وتنهل من تجربته الحيّة ما لا يمكن أن تنهله حتّى من بعض الكُتب!

مكتبة مناتشكو

الجنرالُ يُهدى كلَّ شيء : الدجّاج والبطّ وبيضهما، والبدلات وربطات العنق الغالية، وقطع الصّابون من كلّ نوع، والأوسمة المهينة، والنبيذ الفاخر، والمواعيد مع النّساء وحتّى الكُتب.

وإذا ما ضربنا صفحاً عن السؤال الأهمّ، السّؤال الذي يستبدّ بالذّهن قبل أيّ سؤالٍ آخر : ما الذي يفعله الجنرالُ بنقوده، ما دام لا يشتري شيئاً بالمطلق ؟ فإنّ هناك سؤالاً آخرَ لا يقلّ أهميّة : ما الذي يفعله الجنرال بالكتب، خصوصاً وأنّ الجنرالَ لا يقرأ ؟

بالطّبع، الجنرال لا يردّ هديّةً، حتّى وإن كان يحتقرها. لكن الكتب غير قابلةٍ للاستهلاك ولا تهلك إن هيَ تُركت وشأنَها. المصير الطبيعيّ لتلك الكتب هو المكتبة، إذ لا شيء يمنع الجنرال من امتلاك مكتبةٍ، بل لعلّ الجنرال تحديداً هو من ينبغي أن يملك مكتبةً خصوصاً وأنّه يعرف لها وظائفَ عديدةَ غير وظيفة القراءة.

مكتبةٌ في بيت السّلطة، قوامُها الكُتبُ المهداة، مكتبةٌ ليس فيها أيّ كتابٍ أُقتُنيَ أو طُلب بالاسم، ولا حتّى سُرق. كُتبٌ قادها المسارُ نفسه، وانتهت إلى المصير نفسه، لا تفضيل بينها، ولا معيار لتصنيفها، اللّهم معايير الحجم والطول ووقت الوصول إلى المكتبة. ولا فضل تحوزه من موقعها الخاصّ في المكتبة، ما عدا فضل أن تكون عناوينها مقروءة لعين الزوار، الذين غالباً ما لا يتصفّحونها. قد تكون مع ذلك مكتبةً معبِّرةً جداً، فهي تعكسُ صورةَ صاحبها أكثر من أيّ

مكتبةٍ أخرى، صورة باردة وجامدة وفخمة، وإن كانت خاويةً من الدّاخل.

كثيرةٌ هي المكتبات، التي تنتصب في بيوت السّلطة، مكتباتٌ تتعيّش أساساً على ما يجود به الزوّار العابرون من لحظاتِ تصفّحٍ قصيرة. بحيث يمنح الحظ بعض الكتب من حين إلى آخر، إمكان أن تنفتح بين يديّ زائرٍ عابرٍ، فتتنفّس الهواء لحظاتٍ قبل أن تعود إلى مخدعها البارد.

يصوّر لاديسلاف مناتشكو في روايته الرّائعة ما لذة السّلطة ؟ مكتبةً من هذا النّوع. مكتبةً قوامُها الكتب التي تُهدى إلى رجل السّلطة، الذي لم يتصفّح منها كتاباً طيلة حياتِهما (هو والمكتبة)، والتي انتظرت زيارةَ عاشقِ كُتب لكي ينقّب فيها، وينظر في ما تختزنُه من عناوين، باحثاً حالَ وصوله عن سُلّمٍ لكي ينظرُ إلى أعلى رفٍّ، وكأنّما هو يعرفُ أنّ أبعد الكتب أكثرها حاجةً إلى الهواء، لطول اختناقها. بيد أنّ المفاجأةَ تأتي على لسانِ زوجة الجنرال التي تبيّن للزائر أنّ ما ينتصب أمامه ليس سوى الوهم. فما إن تصل الكتبُ حتّى تختار هي منها ما يستحقّ القراءة، فتنقله إلى مكتبتها الشّخصيّة، وتترك الكتب الميّتة، التي لا إمكان لقراءتها، كي توضع في مكتبة الجنرال، المكتبة التي هي حرفياً «مقبرة»، لدفن الكتب التي لا أمل في إنعاشها أو بعثها.

إنّ المكتبات الميّتة، التي لا تتحرّك، والتي قد تبدو مجرّد زينةٍ، أو رفوف تغطّي مساحةً، كان بالإمكان أن يشغلها شيء آخر، قد تكون هي النّبع المغذّي لمكتباتٍ أخرى أكثر حيويّة. ليست المكتبةُ بالضرورة نهاية رحلة الكتب، وإنّما قد تكون مجرّد محطّة مواصلةٍ، ينزل فيها الكتابُ منتظراً تقرير مصيره، إمّا أن يعتقه قارئ، فينقله إلى مجموعته الشّخصيّة، أو يبقى سجين مكتبةٍ جامع كُتبٍ لا يقرأ، ولا يسمح للكتب حتّى بأن تتنفّس أو تغنم لحظةً من نور !

مكتبة بايّيخو

مثله مثل جنرال مناتشكو لم يكن النّقيب خوزيه مانويل كاستانون يقرأ، كانت حياتُه التي أورد إدواردو غاليانو ومضةً منها في كتاب المعانقات، تتلخّص في الحروب والمعارك. دافع عن الجنرال فرانكو، فخسر ذراعاً وكسب أوسمةً. وبخلاف جنرال مناتشكو، لم يسعَ إلى بناءِ واجهةٍ برّاقةٍ يختبئ خلفها، وتدرّج في سلّم الجنديّة بفضل معاركه الكثيرة لا طموحه، لم يهتمّ بالتّفاصيل الكثيرة، ولا امتلك أيّ فنٍّ للعيش. كان في المحصّلة مختلفاً تماماً عن نموذج مناتشكو للسّلطة، ولم يتوحّد معه إلا في ما يتوحّد فيه أغلب رجال الحروب : عدم الشّغف بالقراءة ! لكن حتّى في عدم الشّغف بالقراءة كانا مختلِفين، فهو لم يملك أيّ مكتبةٍ ولم يُهد إليه يوماً كتابٌ.

نقطة الانعطاف في حياة النّقيب، كانت ليلة سهادٍ، خاصمَهُ فيها النّوم، فأخذ يقلّب كرتونةَ كُتبٍ، لا بد أنّهم صادروها من عند أحد الفوضويّين. ومثلما قد يحدثُ في إحدى أفلام السيّد بولانسكي، عثر النّقيب كاستانون بين الكتب على أحد دواوين «سيزار باييخو»، شاعرِ المهزومين، الشّاعر الذي يقف من الجانب الآخر للمعركة. قضى العسكريُّ ليلته يقلّب صفحات الديوانِ، وما إن بزغت شمس الصّباح حتّى كان قد اتّخذ قرارَه.: قدّمَ استقالَته وتجرّد من أوسمته، وفضّل أن يسجنَ ويُنفى على أن يقف ضدّ أولئك الذين ينطق بايّيخو بصوتِهم.

عديدةٌ هي النّماذج المماثلة، نماذج أولئك الذي تنقلب حياتُهم بسبب كتابٍ، أو مكتبة. لوثيّا بلاييث، في **معانقات غاليانو**، التي وجدت بالصّدفة روايةً كان يخبّئها خالُها، وصادقتها سنواتٍ تحتَ أغطية السّرير، لتتحوّل حياتُها إلى رواية؛ راوي **الحياة الجديدة** لأورهان باموك الذي وجدَ كتاباً سحرياً قلبَ سيرته من حياة عادية إلى حكايةٍ خرافيّة؛ وشرطيُّ الأحاسيس في فيلم **إكليبريوم** الذي كان يقتفي آثار الأعمال الفنيّة والكتب ليتلفها ويقدّم المحتفظين بها إلى العدالة، إلى أن قاده الفضول إلى الاحتفاظ بديوان ييتس، وقراءة أبياته :

لكنّي، وقد صرتُ معدماً، ما عدتُ أملك غير أحلامي،

لقد نثرت أحلامي عند قدميك

سِر برفقٍ، لأنّك تسير فوق أحلامي.

كانت الأبيات كافية ليتحوّل القنّاص إلى طريدة.

ليس التغيير الذي قد تُحدثه مكتبةٌ أو كتابٌ، في حياةٍ بأكملها، مجرّد موضوع من موضوعات التّخييل الأدبيّ. وإنّما لأثر المكتبةِ امتدادٌ فعليٌّ وملموس في الواقع. كثيرون صاروا كتاباً أو مبدعين، بسبب قراءتهم كتاباً، أو اكتشافهم مكتبةً. ويروي نجيب محفوظ أنّه لولا رحلة مدرسيّة حمل فيها أحد رفاقه روايةٍ بوليسية وسمح له بالنّظر فيها، واقتراضها، لما صارَ قارئاً ولا كاتباً. طبعاً دون الحديث عن الانقلاب الذي قد يحدث في المسار الفكريّ لفيلسوفٍ أو مفكّر أو مبدع بمجرّد اكتشافه كتاباً أو مؤلّفاً جديداً يقلب نسق تفكيره بأكمله. فضلاً عن الانقلاب الذي قد تحدثه ترجمة مؤلّفٍ أو كتابٍ في ثقافةٍ بأكملها : ألم تكن ترجمة **ألف ليلة وليلة** إلى اللغات الأوروبية بدايةً لتصوّر جديدٍ عن الثقافة العربيّة، وميلاداً جديداً للّيالي نفسها، ميلاداً نقلها من هامش الثقافة العربيّة إلى مركزها ؟

بيد أنّ كلّ الآثار السابقة التي قد يخلّفها اكتشافُ مكتبةٍ أو كتابٍ، ليست ذات شأنٍ مقارنةً مع أولئك الذين قادتهم الصّدفة إلى قراءة جورج بوليتزر أو سيّد قطب، فألفوا أنفسهم فجأةً في غياهب السّجون أو في مواجهة المقصلة !

مكتبة أفلاطون

«إنّه قرّاء ! »، لربّما تكون هذه إحدى الجمل القليلة التي خلّفها أفلاطون في وصف «تلميذه» أرسطو. ولا نحتاجُ جهداً كبيراً لتخيّل النّبرة المستخفّة التي قيلت بها العبارة. فالثقافة اليونانية التي كانت تقيم كلّ العلاقات تقريباً على أساس الهيمنة والخضوع والعلو والنزول والتّبعية، كانت تضع القارئ في درجةٍ دنيا مقارنةً مع الكاتب : من يقرأ يقبل طواعيةً أن يضع نفسه في مرتبة التّابع. على أنّ نبرةَ الاستخفاف تبلغ مداها متى تصوّرنا أنّ أرسطو كان من نوعية القرّاء الصّموتين، وهي مرتبةٍ ممعنةٌ في التدنّي ضمن مراتب الدّونية، إذ أنّ القراءة الحقّة، كانت في الأزمنة القديمة قراءةً جهورةً، تتمّ بصوتٍ عالٍ مشدّدَةً على المقاطع ومبرزةً التمفصلات. هي قراءةٌ منتجةٌ بمعنى مّا، قراءةٌ غالباً ما تكونُ وجهاً معيّناً للكتابةَ، على اعتبار أنّ القارئ الجهور غالباً ما يتلو كتابَتَه؛ قراءة منتجة قياساً إلى القراءة الصّامتة، القراءة التي تمجّدها العصور الحديثة، القراءة التي تعقد الصّداقة مع الكُتب، والتي لم يكن من الممكن أن تحوز مرتبةً معتبرةً في السيّاق اليونانيّ القديم.

يمكن على هذا الأساس أن نتخيّل أنّ أفلاطون لم يمتلك مكتبةً، أو إن امتلكها كانت مكتبةً بخجلةً، فهو يقع في مرتبةٍ وسطى بين سقراط وأرسطو، الأوّل لم يكتب حرفاً، ولا حتّى قرأ في الغالب حرفاً، وبالتّالي ما كان بحاجةٍ إلى مكتبة. في حين كان الثاني «قرّاءً»، وخلّف كتاباتٍ، ممّا يفترض أنّه كان يمتلك مكتبةً.

إمعاناً في التّخيّيل يمكن أن نحاول تصوّر مكتبة أفلاطون، من داخل تصوّره الفلسفيّ، وتقسيمه الشّهير للعالم، ما بين عالم الواقع وعالم المثل، عالم الحقائق وعالم الظلال، عالم الأشياء الزائفة والنّسخ والسيمولاكرات وعالم المعقولات الثابتة والأزليّة. كيف يمكن أن تكون المكتبة المثال، المكتبة الأفلاطونية، التي لا تعدّ مكتبات هذا العالم إلا مجرّد نسخةٍ شائهةٍ عنها ؟

الاحتمالات الممكنة :

1- المكتبة المثالُ تضمّ الأصول التي تعدّ كُتبُ عالمنا مجرّدَ نُسخٍ عنها. ويترتّبُ عن هذا الاحتمال احتمالانِ فرعيّانِ :

- كلّ كتابٍ يصدرُ في هذا العالم إلاّ ويوازيه في عالم المُثل كتابٌ أصل. وشأنَ جميع موجودات العالم، المُثل واحدةٌ والنُسخ والسيمولاكرات متعدّدة؛ من هنا تكون كلّ نُسخ الكتاب الواحد التي تصدر عن المكتبة مجرّد نُسخٍ عن كتابٍ أصل.

- كلّ كتابٍ يُطبع إلاّ وله أصل، بمعنى أنّ عدد الأصول بعدد نسخ الكتاب، إذا ما طُبعت ألف نُسخةٍ من كتاب، فمعنى ذلك أنّ هناك ألف أصل في عالم الكتاب.

2- لا حاجة إلى افتراض عدد كبير من الأصول تساوي عدد النّسخ الموجودة في هذا العالم، إذ يكفي تخيّل كتابٍ واحدٍ، هو بمثابة الأصل لكلّ ما عداه، بحيث تكون الإنتاجات البشريّة، مجرّد سعي محموم لبلوغ الكتاب المثال، الذي تظلّ محاكاته متعذّرة.

يبقى ثمّت إمكانٌ أخيرٌ لا ينبغي استبعاده : ليس للمكتبة أيّ نسخة ولا أصل، فهي ليست ملحقاً بالعالم أو تجلّياً من تجليّاته، وإنّما هي عالم المُثل نفسه. هكذا يمكن تصور المُثل لا كعالمٍ مفارقٍ هو الأصلُ الذي نُسخ عنه العالم، وإنّما مكتبةً هي الأصل الذي نُسِخ عنه العالم الواقع. النسخة واقعٌ والأصل مكتبة. لا يمكن أن نجانب هنا بالطّبع مسألة أنّ الكتبَ تستنسَخ في الغالب الأعم عن الواقع، تعكس أشياءه وأفكاره وخيالاته ومفارقاته ولا واقعه، بيد أنّ هذا الإشكال يبدو محلولاً من نفسه متى ما تذكّرنا قول الفيلسوف الأثيني :

«المعرفة تذكّرٌ والجهل نسيان»، ليست الكتب لاحقةً إذن، من النّاحية الزمنية، على العالم، وإنّما هي أصله المنسيّ الذي يتذكّر نفسه.

مكتبة الجاحظ

«والجاحظُ مِن أكذب النّاس»

-ابن قُتيبة-

مِن أكذب النّاس = مِن أكثرهم اختلاقاً.

يتحدّد المعنى المتضمّن في الحدّ الأوّل من المعادلة السّابقة، بحسب المعنى الذي يتّخذه حدُّها الثاني. بكلامٍ أكثر وضوحاً : ما يحدّد معنى الكذب وقيمته ودرجته هو معنى الاختلاق وقِيمته ودرجته. تبدو المعادلة من جهة أولى غير متكافئة الطّرفين، ذاك أنّ الطّرف الثاني يكاد يستغرق كلّ معاني الأوّل، بينما لا يستغرق الأوّل كلّ معاني الثاني. ما يعني أنّ كلّ كذبٍ اختلاقٌ، لكن ليس كلّ اختلاقٍ كذباً. والعكس غير صحيح تماماً.

منطقيٌّ أن يكون الجاحظُ كذوباً (والكذب هنا خُلوٌّ من كلِّ معنىً أخلاقيّ)، فهو، مقارنةً مع غيره من الكتّاب، في أعلى سُلم الإبداع والخلق، لكن الغريب أنّ المقارنة لم تتمّ بينَه وبين المؤلّفين، وإنّما بينه وبين عامّة النّاس. ما يعني أنّ الكذب الذي يتحدّث عنه ابن قُتيبة، لا يمكن أن يعدّ كذب واختلاق الإبداع، وإنّما الكذب الأخلاقيّ.

أيّ مبرّرٍ لمنح الجاحظِ هذه الصّفة، دون غيره من مؤلّفي العصور السّابقة على زمن ابن قُتيبة ؟

من المعروف أنّ الجاحظ واحدٌ من الكتّاب الذين كانوا يولون عنايةً

خاصّة بثقافة الانتحال والنّقل. وأنّه من الذين كانوا يكدّون في سبيل الاختباء وراء أسماء غيره. لكنّ ما يميّزه أساساً، - وهو ما لا يستسيغه ابن قُتيبة - هو أنّه تجاوز مرحلة اختراع الكلام إلى اختراع المتكلّمين. لم يعد يلعب في المتن فقط، وإنّما امتدّ عبثه إلى السّند. كان الرّجل على يقين تامّ بأنّ عصره عصرٌ يعلي من قيمةِ المنقول على قيمة المؤلّف والمخترع، لهذا يخترع الأسانيد، وينسبُ كلامه إلى غيره. وضعيةٌ غريبةٌ، ينقلب فيها معنى السّرقة والانتحال، فالدّارج عندنا أنّ السّرقة والانتحال يكمنان في نسب كلام الغير إلى الذّات، لا في نسب كلام الذّات إلى الغير. وكأنّ الجاحظ بدلاً من أن يجعل كُتبه ملتقى تصبُّ فيه كُتب غيره وأقوالهم، كان يفرّق كتَبه وأقواله على غيره **(كالشّاعر عروة : أفرّق جسمي في جسومٍ كثيرة)**. لا يجمع مكتبةً وإنّما يصنعها ويوزّعها على غيره.

قد نتفهّم حكم ابن قتيبة على الجاحظ، رغم قساوته، ذاك أنّ ثقافة تُمجّد قنوات القول أكثر من القول نفسه، لا يمكن أن يزعجها اختلاق القول بقدر ما يزعجها اختلاق القنوات الموصلة للقول. ذاك أنّ إطلاق اليد في التّلاعب بالسّند يهدّد بنسف دعائم الثقافة بأكملها. تلك الثقافة التي لم تكن بعد مستعدّة لتقبّل الأفق الذي يبشّر به أبو عثمان.

على أنّ كلّ ما سبق لا يمكّن من رسم ملامح مكتبة الجاحظ، ولا حتّى علاقته بفعاليّتَي القراءة والكتابة. كان الرّجل تقريباً مجمعاً للتّناقضات، ولربّما تكون الصّورة الأمثل عن مكتبته، هي الصّورة التي تقدّمها عنه هو نفسه بعض الرّوايات في آخر حياته، إذ يُقال إنّ نصفه كان أفلج والنّصف الثاني منقرساً. ويُنسب إليه القول : «كيف يكون من نصفُه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعرَ به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذّباب بقربه ما آلمه ؟».

مكتبةٌ تجمع كلّ الاتّجاهات والتّناقضات، ولا نكاد نستبين فيها الصّدق من الكذب، لكنّ ما لا تخطئه العين هو قدرةٌ رهيبةٌ على السّخرية من كلّ شيء، تلك السّخرية التي واجهت سوءَ فهمٍ عميقٍ قارب أعمال الرّجل بجديّة لا يمكن أن تؤدّي إلا إلى الطّريق التي تاه فيها ابن قُتيبة وغيره.

مكتبة بيناك

قُلتُ لك اقرأ ! اللّعنة ! أعرف أنّك لا تأتي باللّين، وأنّي مطالبٌ بمعاقبتك لتقرأ !

ليس الفردوس الوجه الوحيد الممكن للقراءة... قد تتّخذ المكتبة أيضاً صورة الجحيم. صورة العمل الشّاق المضني، المفروض فرضاً، الذي تحاول الذّات ما أمكنها تجنّبه.

لا ينبغي أن نستبعد البعد المضنيَ في القراءة، وهو البعد الذي شدّد عليه دانييل بيناك في كتابة كأنّها رواية ! حيث لا تكون القراءة دوماً كما نفترض ميزةً، ومتعةً، وإنّما قد تتخّذ طابع القسر والقهر، حين تكون مفروضةً. فضداً على ما يُروّج لها، ليست القراءة دوماً متعةً خالصةً ولا الكتاب دوماً خير رفيق. ولو أنّنا ضربنا صفحاً عن المجهود الفزيولوجي الشّاق الذي تفرضه القراءة، جلوسٌ مطوّلٌ أحياناً، وتركيز بالعينين واليدين والذهن، يبقى الوقت الذي يضيع في القراءة وبالإمكان استثماره في أشياء أخرى.

ليست القراءة مرتبةً شرفيّة تحوزها فئةٌ خاصّة من النّاس، مقارنةً بغيرهم، وإنّما هي فقط نمط للوجود، نمط قد يكون بالنّسبة للعديد من البشر غريباً ومستهجناً، وبالتّالي كلّ الحجج التي يُدلى بها عادةً للتدليل على المتعة والفوائد التي تنطوي عليها القراءة، يمكن معارضتها بحجج لا تقلّ عنها قوّة وصلابة؛ فلا المُتعة الذهنية تفوق ملذّات الجسد، ولا كسب المعارف أفضل من جمع المال ! ولربّما كان الشيء الوحيد الذي يصنع الفرق بين فئة

القرّاء وفئة اللاقرّاء، ويجعل الفئة الأولى أقوى على مستوى الخطاب، هو كون الفئة الثانية لم تسعَ يوماً إلى كتابةٍ أو إنتاج خطابٍ يمجّد فعل اللاقراءة !

حين لا تكون القراءة متعةً ذاتية خالصةً، حين لا تسعى الذّات بنفسها إلى المكتبات، وحين لا يكون الانتماء إلى فئة القراء انتماءً مختاراً بشكلٍ طوعي، يبدأ الجسد في إبداء تمرّده : تعبٌ ما إن نمسك الكتابَ، تشتّتَ الذّهن، تثاقل الجفون، النّوم...؛ كما تبدأ الدّقائق في إبراز قيمتها كعناصر غير قابلة للتّعويض : ما الذي أفعله هنا ممسكاً بهذا الكتاب، في حين كان من الممكن أن أكون الآن مع رفاقي ألهو وأمرح !

كثيراً ما يتمّ تصوير مشاهد سينمائيّة تُنقذ الكتب فيها المساجين من الجنون، إذ تفتح لهم آفاق واسعةً داخل سجونهم (فيلم **الخلاص من شاوشانك** على سبيل المثال)؛ لكن أيضاً ثمّت العديد من الوضعيات التي يمكن أن تتحوّل معها المكتبةُ إلى سجن : القراءة المدرسيّة المفروضة، القراءة التي تكون بمثابة الواجب الثّقيل الذي يجاهد القارئ للتّخلّص منه؛ القراءة بدافع من الإغراء : اقرأ كي تحصل على هديّة، بحيث لا يلفي القارئ أيّ متعةٍ في فعل القراءة، وإنّما ثقلاً يحول دون بلوغه ما يريد.

أحد سجون البرازيل قام بتجربة فريدة، لا يمكن إلا تثمينها، القراءة مقابل الحريّة، بحيث أنّ كلّ مسجونٍ يقرأ كتاباً ويُلخّصه يُخصم من مدّة سجنه عددٌ معيّن من الأيام. هي بالطّبع تجربةٌ إنسانيةٌ رفيعة، لكن لا أدري لمَ انتابني كابوسٌ، بعد أن قرأت الخبر : رأيتني سجيناً لا حول له ولا قوّة، يُجبرني المساجين الأقوياء وذوو النّفوذ على أن أقرأ وألخّص بدلاً منهم، هكذا كلّما قرأت أكثر تقلّصت مدد عقوبتهم، ليغادروا السّجن، واحداً بعد آخر، تاركينني وحدي هنا في هذا السّجن المضاعف، حيث لم تقدّم لي الكتب أيّ أفقٍ أو مساحة حريّة، وإنّما زادت من وحدتي وكآبتي، وأضافت إلى سجني سجناً آخر !

مكتبة فاندرس

أيّ فكرة تعبرُ الذهن لحظة الجلوس إلى كتاب ؟

نعتقد عادة - ولاعتقادنا ما يؤسسه - أنّ ما يعبر الذهن لحظة الجلوس إلى كتاب، هو الكتاب نفسه.. فلحظة القراءة، لمن يدركون معنى القراءة، هي اللحظة الفعلية الوحيدة التي يتصالح الذهن فيها مع ذاته، حيثُ يتطابق مع موضوع اشتغاله.. أنت تجلس الآن إلى كتابك، عينك على الصفحات، ليس لك أن تخترع الكلام، فنملُ الحروف يتحرّك وحدهُ فوق بياض الصّفحة.. أمامك الجُمل تصطفُّ والعينُ تتنقل بحركة دؤوبة، وبتلقائية الفزيولوجيا، من الصفحة إلى الذهن.. ليكن الكتابُ الذي تقرؤه، [وهذا محض اختيار بريء]، كتاب المقابسات لأبي حيّان التوحيدي، ولنجعل الأمر يتعلّق بالمقابسة الرابعة والسّتين، مقابسة الحقّ الذي لا يُدركه الناسُ إلا من وجه دون وجوه، كمثل العميان الذين أتى كلّ واحد منهم الفيل من عضو وأصرّ أن الفيل هو ذلك العضو ضارباً صفحاً عن البقية ! يتحرّك النملُ فوق الصّفحات دؤوباً في سعيه إلى نقل كلام أستاذ التوحيدي، نقصد أبا سليمان السّجستاني... أقُلتَ نملاً ؟ ما الذي يفعلُه النّملُ هنا ؟ أليس الحديثُ هنا عن الحق والفيل والعميان ؟ ثمّ ما مبرّر التفكير في حركة العين أو غيرها من الجوارح، مادامت هذه الجوارح مجرّد وسيلة عرضية لإتمام فعل القراءة ؟ حتّى التفكير في أبي حيّان التوحيدي ليس له ما يبرّره هنا مادام الرّجل قد جاهد ما أمكنه الجهاد في سبيل نزع صفة المؤلّف عن نفسه، والتواري خلف رسم أساتذته ! لتعترف إذن أنّ القراءة عندك

فعل عرضي، أو فعل يجد قوامه في العرض، فيما يطرأ خارج النصّ المقروء، في الإحالة.. في كلّ شيء سوى النّص !!

اِرتبطت عندي القراءة دوماً بفكرة الخارج، من وجهين على الأقل : الخارج بما هو الأفكار التي يطاردها الذهن أو تطارده لحظة اجتهاده في التركيز على موضوع القراءة، والخارج بما هو القراءة إذ تنطبع على الجوارح (خاصة اليدين) فتراها تنطق متحرّكة بما يعجز اللّسان نفسه عن النّطق به.. القراءة علاقة حيّة بالنّص، علاقة جسدية، إنّها في ما يندّ عن الجسد، في الحركة والإيماء. أحبُّ القراءة في الخزانات لأنّي أتلصّص على الآخرين أكثر ممّا أنغمسُ في القراءة.. : ترى ماذا يعبرُ اللّحظة في ذهن الفتاة الساهية أمام المجلّد الضخم ؟ وهذا الكهل الذي لم يقلب الصفحة منذ دقائق عديدة، ما الذي يجعله يركّز اهتمامه كاملا على هذه الصفحة ؟ ماذا يقرأ كلّ هؤلاء ؟ ماذا يعبرُ أذهانهم ؟

في حصان نيتشه لكيليطو توصيف رائع لحالة القرّاء، حيثُ ينصرفُ السارد الصبي إلى وصف حال المتردّدين على الخزانة، أولئك الذين ينخرطون في عالمهم الخاص، فتتحرّك أيديهم محاربةً كائنات وهمية أو مصافحة أصدقاء خياليين، أو تتمطّط شفاههم لتقبيل عشّاق مفترضين...

نحن لا نقرأ عادة أمام الكتب وإنّما نحلُم... ندخُل عالماً هو كلّ شيء سوى الكتاب الموضوع أمامنا، لهذا كلّما اشتدّ التركيز على الكتاب إلا وضاع مفهوم القراءة. في الانفلاتات وحدها نحقّق فرادتنا ونخلق نصّنا الخاص المتميّز. تفتحُ كتاباً لتقرأ نصاً مفترضاً، فتصدمك أولّ جملة مهما كانت بساطتها، لتلاحق ما تحيلُ عليه، فتبدأ الغابات في التشكّل.. حينذاك يصير كلّ كتاب كتاباً سحرياً مادامت تشعبّاته لا نهائية..

يصوّر المخرج الألماني فيم فاندرس في فيلم **أجنحة الرّغبة**، حياة البشر بعيون الملائكة الحرّاس، أولئك الذين ليس لهم التدخل في أي حدث من أحداث العالم والاكتفاء بالمشاهدة المحايدة، المحكومة بلونين فقط الأبيض والأسود، بيد أنّ لهم ميزة سماع ما يدور في الأذهان، ما يفكرّ فيه البشر لحظة عبورهم الطريق، لحظة موتهم، لحظة جلوسهم في الحافلة، لحظة رؤيتهم شخصاً

آخر قادماً... ومن ضمن أجمل المشاهد في الفيلم المشهد الذي يقصد فيه الملائكة خزانة الكتب ليمتلئوا بما يفيض عن القرّاء من أفكار؛ تصوّر لحظة زمنية يتقاطعُ فيها النقد الفني لفاسيلي كاندينسكي مع أزمة التضخم المالي ومشاكل الغابات الاستوائية وجملة رياضية لا مكان لغير الأرقام فيها، ثمّ يصعد فجأة صوت ماريا كلاس الذي لا يدري أحدٌ هل هو فعلاً صوتها مسجّلاً على حامل موسيقي أم أنّه مجرّد فكرة عبرت ذهن أحد القرّاء. وكلّ ذلك تتخلّله انطباعات ذاتية وجمل لا مكان لها في النّص : ماذا يقصدُ الكاتبُ هنا ؟ أليست هذه الفكرة شبيهة فكرة... ؟ عليّ الانتهاء سريعاً، تنتظرني أعمال كثيرة في البيت ! صفحة أخرى بعدُ وأنتهي ! لم ألاحظ من قبل أن هذه الطاولة تنقصها الإضاءة... !

يرتبطُ النّعيم الأخروي في ذهن عديد الكتّاب والمثقفين بمكتبة، مكتبة أبدية، حيثُ لا شيء سوى الكُتب، وحيثُ لا عمل يشغلك سوى القراءة... أما أنا إن كان لي اختيار طريق العبور العكسي الذي يسلكه الملاك في فيلم **أجنحة الرّغبة**، فلن أجازف بحياة مفردة وحيدة بين الكتب.. وإنّما كنت سأختار مكان إقامتي الدائم خزانة كتب كبيرة بين القرّاء... حيثُ بوسعي أن أعيش تجربة الفوضى الكلية؛ فوضى ما يقطع الأذهان لحظة الجلوس إلى كتاب. لكن وأنا السجين، سجين عالم داخلي واحد، ليس في وسعي إلا أن أقصد الخزانات تماماً مثلما كان يفعل بطل كيليطو كي أنظر وأكتفي بالنظر !

III. بناية مُلحقة بالمكتبة

المكتبة

أحمد بوزفور

«كُلّكم طالبُ صيد   غير عمرو بن عبيد

قالها أبو جعفر المنصور لأفراد حاشيته وهو ينظر إلى الشيخ الزاهد عمرو بن عبيد، ينصرف رافع الرأس من مجلسه، بعد أن نصح الخليفة ورفض عطاياه».

... وأغلقت الكتاب. المفروض أن أقرأ الكتاب في مكتبة الثانوية، لكن المحافظ كان قد سمح لي بأخذ الكتاب معي إلى البيت، لأُخلي له المكتبة.

كتابٌ غريب. حين قرأته لأول مرة، كان يحكي قصة السندباد. وأعدت قراءته في الغد فوجدته يتحدث عن قصص الأنبياء، ثم وجدته في اليوم التالي يستعرض سيرة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. كتاب سحري يتجدد كلّ صباح. ربما لذلك كان عنوانه الذي لا يتغير أبدا هو (المكتبة). لم يكن الأستاذ المحافظ يعرف هذا الكتاب، ولا أي كتاب آخر في مكتبته. كان يهتم فقط بإخلاء المكتبة من عشاق القراءة أمثالي، ليدخل إليها عملاء من التلاميذ الذين يوزع عليهم الهدايا والعمولات، والذين يأتمرون بأمره في شنّ الحملات ضد الأساتذة النُزهاء، ثم يدخل إليها سلعته البضة من التلميذات اللاتي يوزعهن على أسياده المتصابين في العمالة والبلدية والمحكمة والكوميسارية والشركات. الأستاذ المحافظ كان معروفاً على الصعيد الاجتماعي في المدينة كلّها، لأنّه كان يمارس السياسة، إذا فهمنا السياسة بمعنى قضاء الحاجات، أو تقديم الأجيال الصاعدة قرباناً على مذابح الحاجات والمصالح.

على أي حال، لم يكن ذلك يهمني أنا. ما كان يهمني في الدرجة الأولى هو أن يسمح لي بالقراءة في المكتبة. لكنّه لم يعد يطيقني. في الحقيقة أنا الذي لم أعد أطيقه. أخذت أعبِّئ كل من أعرف ضده. وكأنني كنت أعبئ رمل مرزوكة في غربال. خانتني الثقوب التي لا أراها، وانفض من حولي أصدقائي التلاميذ، والشرفاء من الأساتذة والمعيدين، وحتى الآباء والأمهات. كأنما كان المحافظ يسحر لهم عند فقيه سوسي... فساسوني. بقيت وحدي أصرخ في البرية كنبي من أنبياء بني إسرائيل.

وحين عزلني، لفق لي تهمة سرقة الكتب، والتحرش بالتلميذات (رمتني بدائها). وانعقد مجلس تأديبي من أزلام المحافظ، فقرر طردي من الثانوية. كأنهم ـ يخالون ـ طردوني من الجنة. لم تكن إلا مستنقعاً آسناً موبوءاً خرجت منه إلى الدنيا : مكتبة الله الكبرى، حيث في كل زاوية محافظ ومنتهزون وضحايا، حيث في كل ركن واحد مثلي يحتج فيُضطهد ويُطرد، وحيث لكل حيث حيثياتها المحايثة.

لم أكن أرتاح إلا وأنا أفتح كتاب (المكتبة)، فأجد في كل مرة عالماً جديداً. كتــاب لا يُقرأ مرتين... كالموت. (لا أعرف يقيناً أشبه بالشك ولا شكاً أشبه باليقين من الموت) يقـول الحسن البصري في أحد تناسخات الكتاب. أما أنا فلم أعرف يقيناً أشبه بالشك ولا شكاً أشبه باليقين من هذا الكتاب. لذلك هربت منه. رميته في صندوق خشبي بين المهملات، وخرجت إلى الدنيا حيث كان لي في كل يوم كتاب أكتبه بجسدي، وأنا أصارع الأخطبوط من أجل لقمة العيش.

اِبتلعتني الدنيا، وغِبتُ عن نفسي زمناً طويلاً. لم أنتبه إلا البارحة... حين رأيتها في الشارع فجأة. لم تتغير كثيراً، باستثناء أنها أصبحت أجمل... وأغنى... وربما أجمد... كالمرسديس التي خرجت منها. ولم تعرفني. هل تغيرت إلى هذا الحد ؟ أما أنا فعرفتها : التلميذة التي عشقتها في الثانوية، والتي طردوني من أجلها، لأني رفضت أن يتاجروا بجسدها في سوق (المكتبة). لم تعرفني... أما أنا، فعدت إلى البيت، وفتحت الصندوق الخشبي، ونفضت الغبار عن

الكتاب... وأخذت أقرأ... الغريب أني وجدته هذه المرة يتحدث عن نفس السيرة القديمة التي قرأتها فيه ذات يوم : سيرة أبي جعفر المنصور، ووجدتها تنتهي بنفس النهاية :

الخليفة ينظر إلى ظهر الزاهد المنصرف، ويقول لأفراد حاشيته :

« كلكم طالب صيد

حتى عمرو بن عبيد

حتى عمرو بن عبيد ».

فهرس

كتابٌ غريب. حين قرأته لأول مرّة، كان يحكي قصة السّندباد. وأعدت قراءته في الغد فوجدته يتحدّث عن قصص الأنبياء، ثم وجدته في اليوم التالي يستعرض سيرة الخليفة العباسيّ أبي جعفر المنصور. كتابٌ سحريّ يتجدّد كلّ صباح. ربما لذلك كان عنوانه الذي لا يتغير أبداً هو «المكتبة».

لم أكن أرتاح إلا وأنا أفتح كتاب (المكتبة)، فأجد في كل مرّة عالماً جديداً. كتاب لا يُقرأ مرتين... كالموت. (لا أعرف يقيناً أشبه بالشك ولا شكاً أشبه باليقين من الموت) يقول الحسن البصريّ في أحد تناسُخات الكتاب. أمّا أنا فلم أعرف يقيناً أشبه بالشكّ ولا شكاً أشبه باليقين من هذا الكتاب.

أحمد بوزفور

9 789954 659243

الثمن 45 درهما